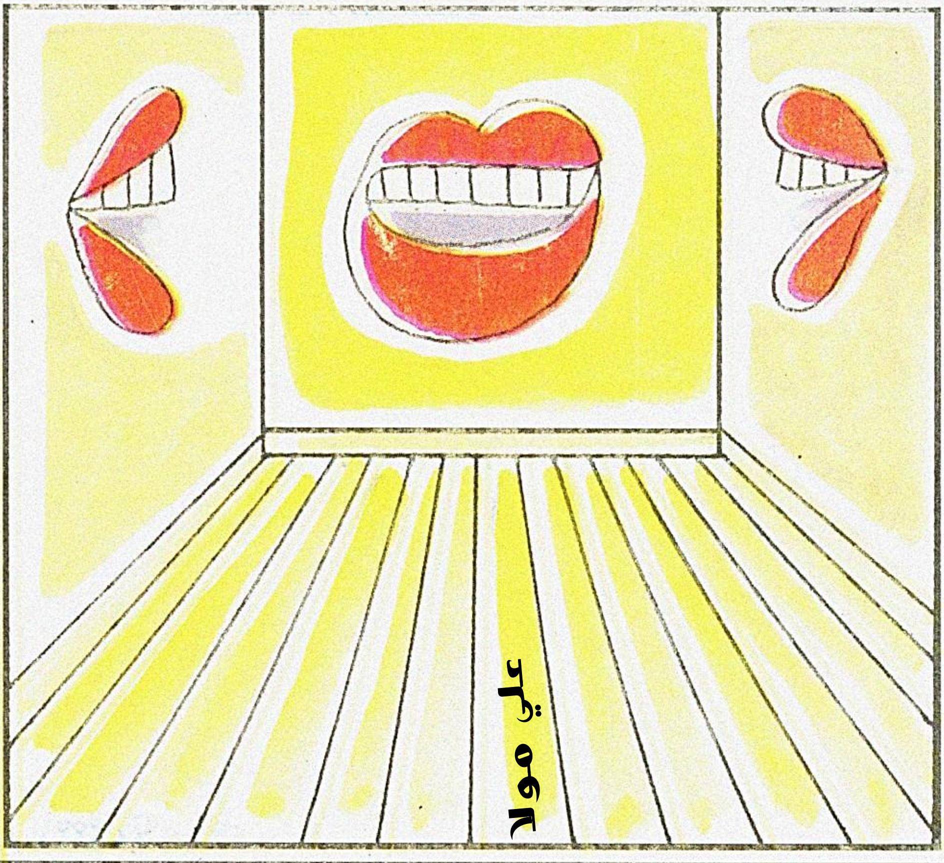
مالون يموت

روايات الهلال

صموئيل بيكت

ترجمة أحمد عمر شاهين



حلمي التوني ٩٩

مالـــون يمـــوت

بقلم :

صمويل بيكيت

ترجمة :

أحمد عمر شاهين

دار الهلال

هذه ترجمة كاملة لرواية:

Malone Dies

By: Samuel Beckett

Penguin Modern Classics 67

الغلاف للفنان

حلمى التونى

قبل أن تقرأ:

هذه رواية غير عادية ، فهى تقف ضد التراث الكلى للأدب، مثل معظم روايات بيكيت الأخرى ، أدب ينفى كل أدب ، وينفى نفسه فى العمل الابداعى الذى يمثله، إنه صورة للفنان فى عالم ينهار .

بطلها يؤكد على ضياع الشخصية ، يرقد عاجزاً فى السرير، ينبش بين حين وآخر فى ممتلكاته الخاصة التافهة التى يجذبها نحوه بعصاه، ويقتل الوقت بحكاية القصص لنفسه ، وحين يمل من قصة ينتقل إلى أخرى ، ليكتشف ان الخيال هو مسكِّن مؤقت للقلق ، وإن إبداع مخلوقات وهمية ما هو إلا رؤية ثانية للذات تمثل أمامه ، مهما غير فى حياة مخلوقاته ومهما تلاعب فى الزمن ، تاركا ثغرات فى بنائه القصصى . هى محاولة ليؤكد البطل وجوده فى وجه الصمت الذى يتهدده، ويعمل على محاصرته من كل الجهات ، لكنه يتأكد فى النهاية عدم جدوى أى وهم ، وما الحكايات التى يحكيها لنفسه إلا تشكيل من إسقاطات حياته ، تعيده دوما إلى ذاته كالمرآة، فالكلام الذى نستخدمه لأجل النسيان يعيدنا بلا رحمة إلى الحاضر وانتظار الموت . إن حكاياته تقترب بشدة من سيرة حياته كما لو ان مذكراته تختلط بالنص الذى يبدعه ، لذا نجد نهايته شبيهة بنهاية «ماكمان» والمركب الذى يسير على غير هدى فى نهاية الرواية .

إن «سابو» – الانسان العاقل – وماكمان – ابن الانسان – ومالون الراوى تختلط حيواتهم بشكل يصعب فيه التفرقة بين أى منهم ، كما يختلط القلم بالبلطة بالعصا لينتهى الأمر بالسلام الكامل ، سلام لكل الغربة الانسانية ، فلا شيء يبقى.

صموئيل بيكيت (١٩٠٦– ١٩٨٩) ليس غريبا على القارئ العربى، فهو يعرفه ككاتب مسرحى ذاعت شهرته وارتبطت بما سمى بمسرح اللامعقول، وكانت

أشهر مسرحياته : فى انتظار جودو ، والأيام السعيدة، ولعبة النهاية ، وكلها ترجمت إلى العربية فى الستينات، وقدمت على المسرح ، وكتبت حولها العديد من المقالات ، لكن بيكيت الروائى ، لم يعرفه القارىء العربى بعد، مع ان الرواية هى المجال الذى ابتدأ به وظل يمارسه بانتظام حتى وفاته فى ديسمبر عام ١٩٨٩.

وهو كاتب يختلف عن معظم المبدعين ، فلم تهمه الشهرة ، ولم يسع إليها، ولم يسهم فى الحياة الأدبية العامة ، كما لم يحضر أية اجتماعات أدبية ، ونادرا ما وافق على اجراء حوار معه ، وكان لا يحب التحدث عن كتبه أو الافصاح عن أفكاره . وقد ظل حتى سن الخمسين تقريباً وهو غير مشهور ، مع أنه مارس الكتابة والنشر منذ أن كان فى الخامسة والعشرين من العمر.

بدأت شهرته بعد نجاح عرض مسرحيته «فى انتظار جودو» فى باريس عام ١٩٥٣ وبدأ الالتفات إلى أعماله الروائية ، ومع انتشار موجة الرواية الجديدة فى فرنسا ، صنف بيكيت كأحد روادها ، على الرغم من إنه لم تكن له صلة حقيقية بينه وبين أدباء هذه الموجة . وبعد ستة عشر عاماً من ذلك التاريخ، حصل على جائزة نوبل فى الادب (١٩٦٩)، إلا إنه كلما ازدادت شهرته، ازداد تراجعا إلى الظل ، وغدت أعماله أكثر رعبا وتعقيدا.

طوال عمره كان خجولا ، ميالا إلى الصمت فى المواقف الاجتماعية ، حتى يمكننا القول إنه فى هذه المواقف كان ضحية لحيائه وصمته ، يكره الاجتماعات العامة وكثرة الكلام ، وإن كان وفيا لصحبته الصغيرة الخاصة من أصدقائه المخلصين . حتى التفاصيل الخاصة بحياته ، أضحى من الصعب الحصول عليها، وبدا ما هو معروف منها متناقضا بشكل ما، ولا يبقى للقارىء فى النهاية سوى كتبه يعرف الرجل من خلالها ويحاول سبر أغوار أفكاره عبرها.

وعلى الرغم من غموض أعماله ، وغموض حياته الشخصية ، وعلى الرغم من أنه كتب مسرحيات بلا ممثلين ، وفصولا مسرحية بلا كلمات ، وروايات بلا حبكة

أو علامات ترقيم ، فهو أحد أشهر الكُتَّاب فى القرن العشرين، وأحد أبرز الظواهر الأدبية تفرداً فى أعماله .

كانت حيرة النقاد تجاهه أكبر ، وقد واجهت الناقد «هيوكنر» الذى كتب كتابين عن بيكيت ، أولهما سنة ١٩٦١ بعنوان : بيكيت - دراسة نقدية - مشكلة كبيرة فى محاولته استخلاص شىء من حواره معه ، فلم يخرج من تلك المقابلة إلا بدوار ذهنى ، حتى إنه حين خرج من عنده ضل الطريق ودخل حارة مسدودة، وكل ما علق بذهنه هو نصيحة بيكيت له أن يذهب ويقرأ أعماله ويُصغى إلى شخوصه لعله يستطيع أن يستنطقها . وقد أخذ الناقد بنصيحته ، وعكف على أعمال بيكيت ، درسها وحللها وشرحها وألقى الضوء على ما بها من أفكار ، وأصدر سنة ١٩٧٦ كتابه الثانى عنه «دليل القارىء إلى أعمال بيكيت».

والقارىء فى حاجة لمثل هذا الدليل ، ليحصنه ضد عادات القراءة المعتادة والمتعارف عليها ، فبيكيت لا يكتب قصائد نثرية ، أو تعبيرا عن حالات مزاجية، وإن كانت هناك قصة فى أعماله ، فهى غالباً قصة غير كاملة ولا تتركز ، فى الواقع، حول ما نقرؤه.

فى إحدى التمثيليات الإذاعية التى كتبها «الجمرات» - وقد ترجمت إلى العربية - تحتوى على حبكة ممتعة ومعقدة ، وفيها من تفاصيل المشاهد مايوفر للكاتب مادة غزيرة لو أراد أن يكتب رواية ، بالنسبة لبيكيت لم تكن القصة هنا مهمة ، فلم يركز عليها ، كان ما يهمه هو إحساس القارىء بالتجربة التى تسردها القصة ، تجربة يعيشها حطام رجل أنانى، تصك أذنه طوال اليوم أصوات البحر ، وهو جالس يتحدث ويتحدث ليغرق ذلك الصوت الذى يصله ، يجسد بحديثه أمامنا أشباح من عرفهم ، أباه الذى غرق، زوجته التى هجرها ، ليس لأنه يستمتع باسترجاع صورهم ، أو تشوقا

لصحبتهم ، ولكن لأن حضورهم المتخيل أفضل لديه من مواجهة النفس التى تحاصرها العزلة .

★★★

حين منح جائزة نوبل للأدب ، انقسم النقاد - كالعادة - إلى فريقين ، فريق هلل وأثنى على هذا الاختيار ، وفريق هاجم هذه الخطوة ، وقد لخص أحد النقاد رأى هذا الفريق الأخير بقوله «هناك من هو أولى بهذا الاختيار ، فبيكيت ارتضى فى النهاية أن يضع فى أدبه «اللاشىء فى كلمات» وأن يبنى عملا يتكرر إلى ما لا نهاية».

وكم فى هذا القول من مغالطة ، مغالطة نتجت عن فشل فى تفهم أعماله وشخوصه ، حقا إن أعماله جميعاً ، كما يقول الناقد ناثان سكوت ، تبتعث من بدايتها إلى نهايتها عالما يكون فيه اليأس وهزيمة الانسان مطلقين ، حتى إنهما يتجاوزان إمكانية إضفاء الطابع الدرامى عليهما ، عالم يعيش فيه الفرد فى تلك المناطق المحفوفة بالمخاطر المتقلقلة المؤلمة، عالم الضياع التام والعوز المطبق. أبطاله مسنون عور وعرج وسكارى، محطمون نفسيا ، يتسربلون بنتف من الخرق، ويسكنون تحت شجرة جرداء أو فى صفائح القمامة أو المصحات العقلية ، أو على أرض باردة مهجورة ، تحت سماء عارية لا تقدم عزاءً . أبطاله بلا يقين من أى شىء ، لا من أنفسهم أو مكانهم أو ما حولهم ، عاجزون عن الاستحواذ على اللحظة الراهنة ، وحيدون بلا علاقات ، وحتى حين يعثرون على منبوذ آخر ، فى وحشتهم، يكونون قد فقدوا براعة التواصل ، وهكذا فإن صور أبطاله صورة للتعرية والتجريد والاجهاض والخسران، لكن إذا قرأنا أعماله بإمعان، أدركنا كم تختلف شخصياته بعضها عن بعض ، وأنه لم يحدث أن كرر نفسه.

لكن الذين يرفضونه والذين يمجدونه يتفقون بأن كتاباته من أكثر المحاولات تفردا فى عالم الأدب ، وتميزا أيضاً فى قطيعتها مع ما كان يطلق عليه أدباً فى

العصور السابقة ، وما تقدمه رواياته يتميز بالكشف عن الدافع الذى قام على أساسه كل الأدب الجديد المسمى بالأدب الضد ، والذى يعتمد على عدم الثقة بإمكانية أى تطابق حقيقى بين الكلمة والواقع الانسانى، ولذا يعتبر البعض، بيكيت ، أهم شخصية فى كتاب الرواية الجديدة .

★★★

ولد صمويل بيكيت فى مدينة دبلن بايرلندا فى الثالث عشر من ابريل سنة ١٩٠٦ ، وتلقى تعليمه هناك فى كلية ترينيتى ، وكانت نشأته إيرلندية بروتستانتية، ذهب ليعيش فى باريس خلال العشرينات ، وأصبح مدرسا للغة الانجليزية من سنة ١٩٢٨ حتى ١٩٣٠ حين عاد إلى إيرلندا ليعمل مدرسا للفرنسية فى كلية ترينيتى لمدة سنتين ، ثم رجع إلى فرنسا ليعيش فيها حتى وفاته ١٩٨٩.

ظهر فى المشهد الأدبى الفرنسى كعضو فى الجماعة التجريبية التى أحاطت بجيمس جويس فى باريس ، وقد ربطته بجويس صداقة عميقة، وكان ذلك طبيعياً فهو يشترك معه فى كثير من النواحى الاجتماعية والثقافية، ليس فقط لأن جذورهما الاجتماعية والثقافية متشابهة - فجويس إيرلندى أيضاً ومن مواليد دبلن - ولكنهما كانا ضحية للكآبة ، وإن اختلف سببها فى حالة كل منهما ، فجويس كان يعانى من كآبة رجل امتد به العمر ووهب نفسه لعبقريته الخاصة وتحمل رفض الناس لها ، بينما بيكيت ، الشاب آنذاك ، بدا وكأنه مولود بالكآبة حتى يمكن القول إن طفولته تختلف عن طفولة بقية البشر . وقد جمع الصمت صداقتهما ، فكانا يجلسان معا عدة ساعات دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وقد كان جويس معجبا به، واعتبره كاتبا واعدا .

بدأ حياته الأدبية بنشر ديوان من الشعر بعنوان «الطالع» سنة ١٩٣٠ ، أتبعه فى العام التالى بكتيب يشتمل على دراسة عن الروائى الفرنسى مارسيل بروست، وفى سنة ١٩٣٤ أصدر مجموعة قصصية بعنوان «وخزات أكثر منها ركلات»،

ورغم إنها تقليدية بشكل ما، فقد تكون مدخلا لقراءة أعماله التالية ، وحين أصبح مشهوراً وأراد ناشره إعادة طباعتها ، لم يوافق إلا بعد نقاش، وتردد طويل . بطل قصص هذه المجموعة شخص واحد ، طالب فى دبلن يستكشف أفراح الجنون بطريقته الخاصة والأصيلة تماما، سواء فى دراسته أو تجواله أو شربه للخمر وتناوله الأطعمة الفاسدة وروايته لخيبته ، والقصص مليئة بالمرح القاسى والرؤى المهلكة، باختصار فهى تحوى عالم بيكيت الغريب كله .

فى سنة ١٩٣٥ أصدر ديوانه الشعرى الثانى بعنوان «عظام الصدى» ، وفى سنة ١٩٣٨ أصدر أولى رواياته «مورفى» ، وكان قد كتب رواية قبلها بعنوان «حلم بشرى لنساء عاديات» ، إلا أنه لم ينشرها .

رواية «مورفى» رواية ايرلندية جداً فى خلفيتها وصورها ؛ وتعتمد أساساً على تجربة المؤلف فى دبلن ولندن أثناء شبابه، خاصة تلك الفترة التى قضاها كممرض فى مستشفى للأمراض العقلية .

والرواية ملهاة مفجعة، غنية بمرح أسود إذا جاز القول ، وهو طابع مميز لكتابات بيكيت، كذلك حفلت الرواية بالابتكارات اللغوية ، ومن ناحية تاريخية يمكن اعتبار هذه الرواية قنطرة بين روايات جويس وأدب مابعد الحرب العالمية الثانية ، الذى تحتل أعمال بيكيت مكانا بارزا فيه .

لم يظهر فى هذه الرواية قدرته الخلاقة فى ابداع الشخصية والموقف الروائى فقط، بل كتبها بحيوية بالغة وأسلوب ممتع يعود بنا إلى عمل الكاتب الفرنسى «رابيليه» الشهير «جارجنتوا وبانتا جرويل».

منذ عام ١٩٤٥ بدأت أعمال بيكيت تستحوذ عليه بشكل كبير ، وبطريقة تثير الدهشة ، فقد اعتاد أن يكتب كل عمل بلغتين ، مرة بالفرنسية ، ثم يترجمه إلى الانجليزية بالدرجة نفسها من الامتياز ، وتوالت أعماله بالفرنسية أولا، ثم بعد سنوات قلت أو كثرت يصدره بالانجليزية .

قبل نشر ثلاثيته الشهيرة ، كتب رواية «ميرسيه وكاميه» سنة ١٩٤٦، عن عجوزين يتواعدان على القيام برحلة خارج المدينة ، لكن يفوتهما اللقاء عدة مرات، ولن تكون رحلتهما سوى تعاقب أجوف للذهاب والاياب بين المدينة والريف ، فما أن يغادرا المدينة حتى يحسا بالحاجة إلى العودة اليها ، وما يكادان يستقران من جديد حتى يأخذهما الحنين إلى رحيل آخر ، ليكون مقدمة لرحلة أخرى، ويظل الأمر كذلك حتى افتراقهما النهائى ، ولم يكن عجزهما عن الحركة فى حقيقته إلا انعكاساً لعجز آخر ، هو استحالة تخلصهما من الزمن، والانطلاق وراء أحلام ليس لها علاقة بالواقع ، وكانت قدرة أحدهما على الكلام نادرا ماتتفق مع قدرة الآخر على الاصغاء.

فى سنة ١٩٥٣ أصدر رواية «وات» ، هذه الشخصية التى لا تحل الطمأنينة عليها إلا عندما تدرك أن عليها التخلى عن البحث عن معنى، وهكذا تعلم ألا يحاول مطلقا الجمع فى لغته بين مجمل الأحداث ومعانيها ، لقد اكتشف الحياة فى الزمن الحاضر ، ورضى مطمئنا بأنه لم يفهم أو يتعلم منها شيئاً ، لكنه فى الحقيقة قد اكتسب أمراً مهما وهو موهبة البقاء صامتا أمام العالم كخاتمة للحذر الذى يحسه حيال الكلمات . فالعالم الذى نطرح عليه السؤال الذى تضمنه اسم وات (ماذا) والذى يبلغ أوجه فى شخصية السيدة «نوت» (عقدة) تأتى الاجابة بما يماثل النفى «نوت» أى لا شىء . ونتيجة لذلك نرى حديثه يتلاشى ويصبح تلاعبا لا يحتوى الواقع ، ونجد التنسيق الموسيقى للمقاطع يحل محل الاهتمامات المنطقية، ويركز نشاطه العقلى نحو ذاته ويخرج من الكتاب ويهرب من الحكاية وينتهى وجوده الظاهرى إلى الاخفاق .

هذه الرواية مع رواية «مورفى» هما الروايتان الوحيدتان اللتان كتبهما بيكيت بإنجليزية مباشرة ، وتلاعب فيهما بكل قدراته اللغوية الممكنة، وربما كان هذا هو سبب تقدير جيمس جويس لعمله، فهو تلاعب باللغة وليس تساؤلا

حولها. لكن بانتقال بيكيت للكتابة بالفرنسية يتحول مركز الاهتمام البلاغى ، إذ ينتقل إلى الاهتمام بأشكال البناء الروائى بدلا من الأساليب اللغوية ، فابتداءً من الثلاثية تتركز القضية الأساسية فى النص على إمكانية بنائه لا على مظهره الجمالى.

فى سنة ١٩٥٠ نشر مجموعة من النصوص - ثلاثة عشر نصاً - بعنوان «نصوص للاشىء» تشكل مفترقا أساسياً فى مؤلفاته ، فهى تلخص حصيلة الثلاثية وتنبىء بما سيأتى بعدها ، وتتضح مدى أهميتها فى نشرها عقب قصصه الثلاث - الطريد ، المهدى، النهاية - (وقد ترجمها كاتب هذه المقدمة وصدرت عن دار سعاد الصباح سنة ١٩٩٣) فهى تشكل المخطط المبدئى للوجود الذى عولج فى الثلاثية ، وتمثل مرحلة تأمل وإيقاع للكارثة الروائية التى ستأتى خارج حدود المكان والزمان والشخص والرواية فى روايته «كيف يكون الأمر؟».

حين أصدر ثلاثيته (١٩٥١ - ١٩٥٢ بالفرنسية ، ١٩٥٥ - ١٩٥٩ بالانجليزية) اعتبرها النقاد أهم عمل يصدر منذ عوليس لجويس ، بل حتى من يذمون أعماله لايستطيعون إنكار ان هذا العمل الغريب والمؤثر متعدد المستويات ، أحد الروائع الأدبية ، على الرغم من امكانية قراءة كل جزء منها على حدة كرواية مستقلة.

فى الجزء الأول «مولوى» ، يروى البطل - وهو عجوز مريض - ذكرياته عن الاوقات التى كان فيها قادرا على الحركة، يسير على الأرض فى حالة من البؤس والشقاء الدائم المصحوب بتفاؤل رواقى ، وتصل هنا قدرة بيكيت ذروتها فى انتزاع المرح القاسى من الوضع الانسانى.

على نقيض ذلك نجد القسم الثانى «تقرير موران» ، عبارة عن تقرير يكتبه موران - وهو مخبر خاص - بعد إرساله للبحث عن مولوى ، وهو شخصية من نمط شائع أكثر من مولوى ، وخلال بحثه وغوصه فى العجز واليأس ، يصبح مع مضى الوقت شبيها بالشخص الذى يبحث عنه.

أما الجزء الثانى «مالون يموت» - وهو هذه الرواية التى بين يديك - فهو عبارة عن مونولوج طويل - ليس على طريقة جيمس جويس - فلبيكيت طريقة بارعة فى معالجة واستخدام المونولوج، يقص علينا البطل من خلاله ما يدعى إنه الحقيقة وهو مُسمّر على سريره فى عجز تام فى انتظار الموت.

فى الجزء الأخير من الثلاثية «اللامسمى» يعود البحث حيث تركه مالون للاجابة على الاسئلة : أين ومتى ومن؟ يبحث المتكلم عن تأكيد شخصيته متحدثا عن نفسه دون أن يتوصل إلى ادراك ذاته بشكل يرضيه، وهنا يبلغ البحث عن الذات وضياعها الذروة ، ويتقلص ذلك اللامسمى الذى يتحدث إلينا فى هذه القصة إلى أبعد حد، حتى بدا مستحيلا أن نرى جسدا أو موقفا فى مكان أو زمان يمكن تحديد سماتهما.

وربما رأيت فى «مالون يموت» أكثر الأجزاء تماسكا، مما جعلنى أقدم على ترجمته أولا ، لكن هذا لا ينفى امكانية ترجمة الجزءين الآخرين فى المستقبل القريب بمشيئة الله، مع أننى سبق أن نوهت إن كل جزء من الثلاثية يمكن أن يقرأ كرواية مستقلة ، لطبيعة الاسلوب والبناء الذى يتبعه بيكيت فى أعماله.

★★★

فى سنة ١٩٦١ صدرت أكثر رواياته تجريدية «كيف يكون الامر؟» إذ تبدو الكتابة فيها وكأنها مجرد القدرة على رصف الكلمات فى جمل دون حاجة للاهتمام بأن تعطى معنى ، فلا نجد بداية أو نهاية حقيقية للنص ، ويبعث فينا ذلك التجريد الحيرة ، فنحن لم نتعود القراءة لمجرد اكتشاف طبيعة بناء العمل، بل اعتدنا أن يكون للقصة معنى، وأن نستطيع تلخيص مضمونها واستخلاص نتيجة ما، لكننا هنا لا نجد شيئاً سوى الكلمات وسر لفظها ، كلمات تجعلنا نرى معها عالما فى رحلات عجيبة .

تحدث الرواية فى درجة الصفر من الانفعال ، تتحدث عن الجلادين والضحايا، لكن ليس حديثا عن الألم، إذ تعرض الموقف دون إمكانية لتدخل الحكم الاخلاقى والعاطفى، بمعنى ان هدفها الوحيد هو أن تبحث فى ماهية الأشياء لدى تفحصها عن قرب دون الالتزام باتخاذ موقف حيال ما يقال ، ويمنعنا التناوب المنتظم بين أدوار الجلاد والضحية فى تحديد من الظالم ومن المظلوم ، كما لا يمكننا اعتماد أية قيمة يمكن الاستناد إليها للحكم على ما وقع .

★★★

فى القصص القصيرة الطويلة التى كتبها بعد روايته هذه وصولا إلى آخر رواياته «أسىء رؤيتها أسىء فهمها» سنة ١٩٨٧ ، كانت اللغة لديه مزيجا من الألفة والغرابة، يعزف فيها على الألحان نفسها : الشيخوخة، المتكلم والآخر والذات ، اللغة . وقد أثار موضوع الشيخوخة الذى يركز عليه فى رواياته ، النقاد دائماً، فقالوا ربما لأنها تعبر عن انفصال الذكرى عن الرغبة ، الحاضر عن الماضى، النفس عن الآخرين ، الهنا عن الهناك . إن التجديد الذى جاء به بيكيت نابع مما يريد أن يعبر عنه، وليس فى أسلوب السرد الروائى، فتيار الشعور، هذا التكنيك الذى يقوم أساسا على المولونوج الداخلى، وتختفى فيه قواعد الانشاء التقليدى من رسم لشخصيات واضحة المعالم وتصوير أحداث متلاحقة ومتسلسلة زمنيا ، ليس جديدا على الفن الروائى. ثم إن الغموض عنده غموض مشروع، فهو يريد أن يعبر عما لا يمكن التعبير عنه، يريد أن يعبر عن العدم القابع وراء الوجود، مستخدما ألفاظاً من اللغة هو يدرك أنها ليست موصلا رديئا للمعانى فحسب ، بل إنها لا توصل شيئاً على الاطلاق ، بمعنى إننا نرى أمامنا جهدا يتجه نحو الكلام وتخونه اللغة دائماً ، ليس لأنها غير قادرة على التعبير بل لأنها لا تستطيع أن تبرز إلى الوجود شيئاً لا يمكن أن يوجد إلا فى كلمات جديدة فريدة غير مألوفة ، وفى صياغة نحوية تختلف عن النحو المعتاد.

ليس ما يريده بيكيت هو هدم الاشكال الأدبية التقليدية، بل همه أن يوضح أن الادب ذاته، يمثل استحالة أو إخفاقا مستمرا ، فهو لا يقوم إلا فى غياب المعنى، بينما الادباء ينزلقون به نحو التأكيد . وهنا يبرز الاختلاف بينه وبين جويس . فعند جويس ثقة غير محدودة بقدرة الكلام ، بينما اللغة عند بيكيت لا تتيح لنا الأخذ بناصية العالم وإن كل شيء ينتهى بالخيبة . وقد قال فى مقال له «يتمثل اختلافى عن جويس فى إنه كان يحسن معالجة مادته وبشكل رائع، وقد يكون الأعظم فى هذا المجال، كان يعطى الكلمات أقصى ماتحتمل، أما أنا فلا أجدنى سيداً لمادتى ، أعمل فى العجز وفى الجهل».

وهكذا ، ففى أعماله تشكل قضية الاسلوب والمفهوم ، محورا للدراسات عند النقاد، فشخصياته لا تجد موضوعا تتحدث عنه إلا ذواتها الخاصة ، وسرعان ما تصطدم بذلك البعد المحتمل بين ماتريد قوله - وهو مايفترض التعبير الملائم عنه لغة جديدة وخاصة - وبين ماتقوله فى الواقع والذى لا يمكن أن يرضى تماماً رغبتها فى التعبير ، وإذ ذاك يصبح الكلام غير مفهوم وغير قادر على التواصل .

وإرضاءً لهذه الرغبة ينبغى خلق كلمات ذات مفهوم ذاتى، بشكل يجعل مغزاها مختلفا تماماً عما تعنيه أثناء استعمالها العادى، وبذلك تجد اللغة مبررها الحقيقى، لكنها فى الوقت ذاته تفقد مهمتها فى التواصل . ويمكن للتواصل أن يظل قائماً إذا رضى المتكلم بالمفاهيم المعترف بها عادة ، لكن عمله آنذاك سيشوه وتختفى بذلك ركيزة اللغة.

بيكيت من كبار كُتَّاب الأساليب ، يتلاعب بكل القدرات الممكنة للغة والبناء الروائى ، تدور أحداث رواياته حول القدر الانسانى ، وقضايا البشر الكبرى

كالخوف من الموت ومعنى اللامعقول ، أبطاله يبذلون جهدا نحو الكلام وتخونهم اللغة دائما، ولم يكن الإشكال الذى أقامه بيكيت يدور حول اللغة وحدها أو العناصر الروائية التقليدية، ولكن بشكل أعم مفهوم الأدب نفسه كما نظر اليه من خلال علاقته بإمكانية قراءته وعقلانيته ، وبهذا المعنى يبدو بيكيت فريدا فى عصرنا.

أحمد عمر شاهين

مالون يموت

سيدركنى الموت قريباً بصرف النظر عن أى شىء ، ربما الشهر القادم أى إبريل أو مايو ، فالسنة مازالت فى بدايتها . آلاف الأشياء الصغيرة تخبرنى بذلك. ربما أكون مخطئاً وأعيش حتى عيد القديس يوحنا المعمدان ، أو عيد الحرية فى الرابع عشر من يوليه، ولا أستبعد أن يصل تلهفى بأن أدرك عيد تجلى المسيح على الجبل ، أو عيد صعود مريم العذراء إلى السماء فى منتصف أغسطس . لا أظن ذلك ، ولا أعتقد أنى مخطىء فى القول ، بأن هذه الاحتفالات، ستحدث فى غيابى هذا العام. لدى شعور بذلك أحسه منذ بضعة أيام، وأصدقه . لكن ، فيم يختلف هذا الاحساس عن تلك المشاعر التى اجتاحتنى منذ ولدت؟ لا. هذا النوع من الاغراء لا أريده الآن. إن حاجتى لجمال الحياة قد انتهت، واستطيع أن أموت اليوم، إذا رغبت ، بمجرد مجهود صغير، إذا استطعت أن أرغب أو أن أقوم بمجهود. لكن ذلك لا يختلف عن أن أدع نفسى تموت بهدوء دون أن استعجل الامور. لابد أن شيئاً قد تغير . لن أعتمد على هذا التوازن بعد الآن . سأكون حياديا وهادئا ، ولا صعوبة فى ذلك لولا الآلام . فهى المتاعب الوحيدة ويجب أن أحذرها . منذ قدمت إلى هنا وأنا أقل استجابة لها ، ومع ذلك فلاتزال نوبات من قلة الصبر تطوف بى بين حين وآخر ، يجب الحذر منها خلال الاسبوعين أو الثلاثة

القادمة، ولا أنسى أن أضحك وأبكى بهدوء ودون مبالغة، ولا أنشغل بنفسى ، وسأكون طبيعياً فى النهاية . قد أعانى الكثير فى البداية، لكن هذه المعاناة ستقل دون أن تترك أثرا . لن أعطى أقل التفات لجسدى، لن أشعر بالبرد أو الحر ، سأكون فاترا. أموت بفتور دون حماسة. لن أشاهدنى وأنا أموت، فذلك سيفسد كل شيء . لكن هل لاحظت نفسى وأنا أعيش!هل سبق أن اشتكيت؟ اذن لماذا الفرح الآن؟ أنا راضٍ ولكن ليس بالضرورة لدرجة التصفيق باليدين.

كنت دائما أشعر بالرضا ، لأنى أعلم أنى سأثاب فى النهاية . وها هو غريمى القديم أمامى، فهل أرتمى على عنقه! لن أحاول أن أسأل أو أجيب على أسئلة أخرى . سأقص على نفسى بعض القصص، وأنا انتظر الموت، إن استطعت . لن تكون قصصا كالتى تعرفها جميلة أو قبيحة ، ستكون قصصا رصينة ، لا قبح فيها ولا جمال أو حتى انفعال ، قصصا بلا حياة مثل راويها . ما هذا الذى قلته؟ لا يهم. أتطلع أن تمنحنى كثيرا من الرضا ، أو بعض الرضا، ومن هذه الناحية أنا راضٍ، فلدى الكثير ولا أحتاج إلى مزيد . ودعنى أقول قبل أن أمضى فى حديثى: إنى لا أغفر لأحد، وأتمنى للجميع حياة آثمة، ثم نار جهنم وصقيعها ، حتى يخرج اسم شريف من الأجيال اللعينة .

يكفى ذلك لهذا المساء.

★★★

هذه المرة أعرف أين أمضى، لن تكون هناك ليلة ماضية وليلة قادمة، الأمر ، الآن لعبة ، سألعب وأنا الذى لم أعرف قط كيف ألعب. اشتقت لذلك على الرغم من معرفتى باستحالته، ومع ذلك أحاول.

أنرت جميع الاضواء، نظرت حولى جيداً ، وبدأت ألعب مع ما ومن أراه،

الناس والأشياء وبعض الحيوانات لا تتمنى أكثر من اللعب. فى البداية سار كل شىء على مايرام، جاءوا جميعاً سعداء لأن هناك من يريد اللعب معهم. فإذا قلت: أريد أحدب، يأتى بسرعة كالأراجوز مفتخراً بحدبته التى سيعرضها ، ولا يخطر بباله أنى قد أطلب منه التعرى.

لم يمض وقت طويل حتى عدت وحيداً فى الظلام . لذا تركت اللعب وأخذت على نفسى أن تنجذب للأبد لعدم التشكل والصمت والانشداه المستهتر والظلام والاختفاء والسير متعثرا وذراعاى ممدودتان . وهذا هو العهد الذى لم أستطع التخلص منه منذ قرن من الزمان تقريباً . لكن منذ الآن سيختلف الأمر، لن أفعل شيئاً سوى اللعب . لا . لايجب أن أبدأ بالمبالغة ، سألعب جزءاً كبيرا من الوقت ، الجزء الأكبر إذا استطعت. ربما لا أنجح كما حدث حتى الآن ، وأجدنى مهجوراً فى الظلام كالعادة ودون شىء ألعب به . آنذاك سألعب مع نفسى، وإنه لأمر مشجع ، القدرة على تخيل مثل هذه الخطة.

لابد أنى فكرت فى خطتى أثناء الليل، أظن أنى استطيع أن أحكى لنفسى أربع قصص كل منها بطريقة مختلفة، قصة تتحدث عن رجل، وأخرى عن امرأة ، وثالثة عن شىء، والأخيرة عن حيوان، ربما طائر، وأظن أن ذلك كل شىء . ربما أضع المرأة والرجل فى قصة واحدة، فالفرق بسيط بينهما، خاصة إذا كان رجلا مثلى. ربما لا يتوافر لى الوقت للانتهاء من كل ذلك، أو ربما انتهت بسرعة. ذلك لا يهم أيضاً. لو انهيت بسرعة ، سأتحدث عن الأشياء التى فى حوزتى ، وهو أمر أردت دائماً أن أفعله ، سيكون نوعا من الجرد. على كل حال ، أترك ذلك إلي اللحظة الأخيرة ، حتى أتأكد أنى لم أخطىء، سأفعل ذلك بالتأكيد بغض النظر عما يحدث ، ولن يستغرق أكثر من ربع ساعة ، أو فترة أطول إذا رغبت ، لكن إذا كنت فى عجلة من أمرى، فى لحظتى الأخيرة، فربع ساعة هو كل ما أحتاجه للجرد ، ورغبتى أن أكون آنذاك ، واضحا بلا تحذلق ، فمن الواضح أنى قد أموت

فى لحظة ، لكن ليس من الأفضل - إذن أن اتحدث عن ممتلكاتى دون تأخير؟ ألن يكون ذلك أكثر حكمة ؟ وفى اللحظة الأخيرة أصحح الخطأ إذا كان ذلك ضرورياً. ذلك ماينصح به العقل، لكن لم يبق لدى من العقل إلا القليل ، كل الأشياء تشجعنى ، فهل أموت دون أن أترك خلفى جردا بالموجودات؟ هأنذا أعود ثانية لمحاولاتى القديمة . طبعاً يمكن ذلك إذا عزمت أن أقوم بالمخاطرة. طوال حياتى أؤجل الجرد قائلاً : لم يحن الوقت بعد، أمازال الوقت لم يحن بعد؟ حلمت دوما بتلك اللحظة التى يرسم فيها المرء خطا ويحسب مجموع ما لديه. يجب ألا أفقد رشدى، القصص أولا ، ثم أخيراً أقوم بالجرد إذا سارت الأمور سيرا حسنا.

سأبدأ بالرجل والمرأة حتى لايزعجانى مرة أخرى، قصتهما أول قصة، ولاتوجد قصة ثانية، فالمرأة دخلت مع الرجل . هناك ثلاث قصص اذن، قصة الرجل والمرأة، ثم تلك التى تتحدث عن حيوان ، ثم التى تتحدث عن شىء، ربما حجر . ذلك واضح تماماً ، وأخيراً أتناول ممتلكاتى ، وإذا بقيت حيا فسأتخذ الخطوات الضرورية للتأكد من عدم ارتكابى لخطأ ما . وكل ذلك كثير. اعتدت أن أجهل طريقى، لكنى أدركت أنى سأصل ، وستكون هناك نهاية للطريق الطويل المسدود. ياالهى، أنصاف حقائق، لايهم، إنه وقت اللعب، من الصعب التعود على ذلك، الحيرة القديمة تعاودنى، لكن الوضع الآن مختلف، فالطريق واضح جداً، وهناك أمل ضئيل فى الوصول إلى نهايته، وآمالى كبيرة . ما الذى أفعله الآن؟ أفقد الوقت أو أكسبه؟ قررت أيضا أن أقدم موجزاً لحالتى الراهنة قبل البدء فى سرد قصصى، وأعتقد أن هذه غلطة، ضعف، لكن لابد مما ليس منه بد. بعد ذلك سألعب بكل حمية، سيكون اللعب لاحقا لعملية الجرد، وبذلك تكون المعايير الجمالية بجانبى ، أو بعض منها على الأقل، حتى أتمكن من استجماع قواى ثانية للتحدث عن ممتلكاتى، إذن فالوقت الباقى مقسم إلى خمسة، أية

خمسة هذه ، لا أعلم ، كل شيء ينقسم في نفسه ، أفترض ذلك ، وإذا بدأت في محاولة التفكير ثانية «فسألخبط» وفاتي .

لابد من القول إن هناك جاذبية شديدة لهذا الطموح ، لكني حذر . فخلال الأيام القليلة الماضية وجدت جاذبية لكل شيء ، لنعد إلى الخمسة ، هناك وصف الحالة الحاضرة ، ثم ثلاث قصص ، ثم الجرد . أخاف من الفترات الفاصلة بين هذه الاجزاء . برنامج حافل . لا يجب أن أحيد عنه قيد أنملة . أشعر أني أرتكب غلطة كبيرة ، لا يهم .

الحالة الحاضرة : يبدو أن هذه الغرفة ملكي ، لا أجد تفسيرا آخر لتركي فيها كل هذا الوقت ، إلا إذا كانت إحدى الشخصيات القوية هنا قد أوصت بذلك ، ويبدو هذا صعبا جدا ، فلماذا تغير تلك القوى من نظرتها إليّ ؟ من الأفضل أن نتبنى التفسير البسيط . حتى لو لم يكن بسيطا أو يفسر الكثير . النور الساطع ليس ضروريا ، شمعة صغيرة هي كل ما يحتاجه الإنسان ليعيش في غربة ، إذا احترقت بإخلاص . أتيت إلى الغرفة ، غالبا ، بعد موت من كان يشغلها قبلي ، مهما كانت شخصيته ، لا أسأل كثيرا على كل حال . إنها ليست غرفة في مستشفى أو في بيت للمجانين ، أستطيع أن أشعر بذلك ، فقد تصنت في ساعات مختلفة من الليل والنهار ، ولم أسمع ما يبعث على الريبة أو بشيء غير طبيعي ، وإنما أصوات مسالمة لرجال في الغالب ، ينهضون ويستلقون ، يجهزون الطعام ، يأتون ويذهبون ، يبكون ويضحكون ، أو لا أسمع شيئا اطلاقا ، ولا صوت . حين أنظر من النافذة ، يبدو واضحا من إشارات معينة أني لست في أحد بيوت إيواء العجائز بأي معنى للكلمة ، لا ، هذه ليست إلا غرفة خاصة بسيطة في منزل عادي بسيط على ما يبدو .

لا أذكر كيف جئت إلى هنا ، ربما في عربة إسعاف أو عربة من أي نوع . في يوم ما وجدت نفسي هنا ، في السرير ، ربما فقدت وعيي في مكان ما ، واستفدت

من الفجوة التي حدثت في ذاكرتي ، ألا تعود حتى أستعيد حواسي في هذا السرير . بالنسبة للحوادث التي أدت إلى اغمائي ، وجعلتني كثير النسيان ، فلم تترك أثرا خاصا على ذاكرتي ، لكن من منا لم يتعرض للنسيان يوما ؟ يحدث ذلك كثيرا خاصة بعد أن يكون المرء مخمورا كنت غالبا أسلي نفسي بمحاولة اختراع مثل تلك الحالات ، دون أن أنجح في تسلية نفسي في الواقع .

لكن ما هو آخر شيء أذكره ؟ يمكنني أن أبدأ من هناك ، قبل استرداد وعيي هنا ، يبدو أني نسيت ذلك أيضا . كنت أمشي بالتأكيد ، طوال حياتي وأنا أمشي، عدا الأشهر القليلة الأولى ، ثم منذ جئت إلى هنا . لكني في نهاية كل يوم من المشي لا أعرف أين كنت ولا فيم فكرت . إذن ما الذي أتوقع أن أتذكره ، وكيف ؟ أتذكر حالة ما ، كانت أيام حياتي الأولى أكثر تنوعا واختلافا ، هكذا أراها حين تعود إليّ ذاكرتي بغتة على نوبات ، ولا أعرف طريقي خلالها جيدا . عشت في نوع من الغيبوبة ، ولم يشكل لي غياب الوعي قط أية خسارة . ربما فقدت وعيي بسبب ضربة على الرأس ، ربما في غابة ، نعم ، فحين قلت غابة الآن ، فإني أتذكر بغموض غابة ما .

كل ذلك ينتمي إلى الماضي ، أما الحاضر فهو الذي يجب أن أبنيه قبل أن يثأر مني . إنها غرفة عادية ، وعلى كل حال فخبرتي في الغرف قليلة ، ولكن هذه تبدو لي عادية تماما ، الحقيقة أني لو لم أشعر بأني أحتضر لاعتقدت أني ميت ، أكفر عن ذنوبي أو في أحد بيوت السماء . شعوري بأن لحظات العمر تتسرب وتنفد يؤكد لي أني لست في السماء ، في الجنة أو الجحيم . الإحساس بأني في القبر تحت الأرض كان قويا عندي منذ ستة أشهر ، ولو قيل لي أني سأعيش كما أحيا الآن لابتسمت ، لم يكن أحد سيلاحظ الابتسامة، لكني كنت سأدرك أني أبتسم . أتذكر الأيام الأخيرة جيدا ، فذكرياتها أقوى من ذكريات ثلاثين ألف يوم غريبة مضت من عمري قبلها ، العودة إلى الوراء ستكون أقل دهشة . إذا لم يحن

الموت بعد أن أكمل الجرد ، فسأكتب مذكراتي . ذلك مضحك . نكتة . لا يهم . هناك دولاب لم أنظر بداخله قط . كل ممتلكاتي مكومة في ركن في كومة صغيرة ، أستطيع أن أعبث بها بعصا طويلة ، أجرها نحوي وأرجعها ثانية . سريري قرب النافذة ، أستلقي متجها نحوها معظم الوقت ، أرى الأسطح والسماء ، ولمحة من الشارع إذا مددت عنقي، لا أرى حقولا أو تلالا مع أنها قريبة ، لكن هل هي قريبة؟ لا أعرف . ولا أرى البحر أيضا ، ولكني اسمعه حين يكون هائجا . أستطيع أن أرى ما يدور داخل غرفة في منزل عبر الشارع ، تجري هناك أشياء غريبة أحيانا ، ناس عجيبة ، قد لا يكون ذلك حقيقيا ، ولابد أنهم يرونني أيضا برأسي الكبير مستندا على زجاج النافذة ، لم يكن لي قط شعر طويل غزير كما هو الآن ، أقولها دون خوف من أن يبدو كلامي متناقضا . في الليل لا يرونني لأني لا أضيء النور أبدا . لقد درست النجوم قليلا ، لكني لم أفهم الكثير . ذات ليلة وأنا أحملق فيها ، وجدتني فجأة في لندن ، أيمكن أن أذهب بعيدا إلى هناك ؟ وماذا تفعل النجوم لتلك المدينة ؟ من ناحية أخرى أصبح القمر مألوفا لدي . اعتدت على تغيراته ، من المحاق إلى الهلال إلى البدر . أعرف ساعات الليل بالنظر إليه ، وأعرف الليالي التي لا يظهر فيها . وماذا أيضا ؟ السحب ، إنها مختلفة ومتنوعة . كل أنواع الطيور تأتي لتحط على حافة النافذة طلبا للطعام ، منظر مؤثر ، تنقر زجاج النافذة ، لم أعطها شيئا قط ، لكنها مازالت تأتي ، ماذا تنتظر ؟ إنها ليست نسورا على كل حال .

لم أترك هنا هكذا ، بل هناك من يعتني بي ، وهذا ما يحدث الآن ، فالباب يفتح نصف فتحة ، وتمتد يد لتضع طبقا على طاولة صغيرة مخصصة لهذا الغرض ، تأخذ اليد طبق اليوم السابق ، وتغلق الباب ثانية ، كل يوم يحدث ذلك ، وفي الوقت نفسه تقريبا . وحين أرغب في الأكل أشبك الطاولة بعصاي وأشدها نحوي ، فهي تتحرك على عجلات ، فتأتي تصر وتترنح ، وحين لا أحتاجها

أرسلها عند الباب حيث مكانها . إنه حساء ، لابد إنهم يعرفون أنى بلا أسنان ، أتناوله مرة واحدة ، فى اليوم ، فى المتوسط ، هم يحضرونه مرتين أو ثلاث ، حين تمتلىء القصرية أضعها على المنضدة بجانب الطبق وأمكث ٢٤ ساعة بلا قصرية ، لا ، فعندى اثنتان . لقد فكروا فى كل شىء . أنام عاريا فى السرير، وسط البطاطين التى أزيدها وأنقصها حسب تغير الفصول ، لا أشعر بالحر أو بالبرد ، لا أغتسل ، لكنى لا أصبح قذرا ، وإذا حدث واتسخ جزء من جسدى ، أنظفه بأن أفركه بإصبعى بعد أن أبلله باللعاب . ما يهم الآن هو أن تأكل وتتبرز ، الطبق والقصرية ، القصرية والطبق ، فهما القطبان . كان الأمر مختلفا فى البداية . كانت المرأة تأتى إلى الغرفة مباشرة ، تنهمك فيما حولها وتسألنى عن احتياجاتى ورغباتى ، لم يكن الأمر سهلا ، لم تكن تفهم ، حتى وجدت ، ذات يوم ، التعبيرات والمصطلحات التى تناسبها ، ونجحت أن أدخل فى رأسها ما أريد . كل ذلك يبدو كنصف خيال . هى التى أحضرت لى هذه العصا الطويلة ، لها خطاف فى نهايتها ، شكرا لها ، فبها أستطيع أن أتحكم فى أبعد فجوة فى غرفتى ، ما أعظم ما أدين به للعصا ، حتى أنى أنسى غالبا الضربات التى لحقتنى منها . كانت امرأة عجوزا ، لا أعرف لماذا كانت طيبة نحوى ، نعم ، دعنا ندعوها طيبة دون مراوغة ، أعتقد أنها أكبر منى سناً وأقل تماسكا على الرغم من حركتها الكثيرة . وهى تنسجم مع الغرفة إذا صح القول ، وفى تلك الحالة ، فهى ليست فى حاجة لدراسة منفصلة ، ويمكن إدراك أن ما تقوم به هو نوع من العطف الخالص أو بدوافع عاطفية نحوى ، لا شىء مستحيل ولا أستطيع أن أنكر ذلك فترة أطول ، والأكثر إقناعا أن نفترض أنى حين قدمت إلى الغرفة هنا فقد قدمت من أجلها أيضا . كل ما أراه منها الآن ، يدها النحيلة وجزء من الكم ، حتى ذلك الجزء لا أراه . ربما ماتت ، لقد سبقتنى ، ربما يد أخرى هى التى تضع الطعام وتنظف المائدة . لا أعرف كم أمضيت هنا ، لقد سبق أن قلت ذلك ، كل ما

أعرفه أنى كنت كبيرا فى السن قبل المجىء إلى هذه الغرفة ، أقول إنى ابن ثمانين ولكنى لا أستطيع أن أبرهن على ذلك ، ربما بين الأربعين والخمسين ، أو الخمسين والستين ، مرت دهور منذ عددتها ، أعنى سنوات عمرى ، أعرف السنة التى ولدت فيها ، لم أنسها ، لكنى لا أعرف فى أية سنة أنا الآن ، أعتقد أنى هنا منذ فترة طويلة ، فلا يوجد شىء من تقلبات الفصول لا أعرفه وأنا بين جدران هذه الغرفة ، وهو ما لا يتعلمه المرء فى سنة أو سنتين ، وفى غمضة من جفونى تطير كل أيامى هل بقى شىء لم أقله ؟ ربما بضع كلمات عن نفسى ، يمكنك القول دون سرد كثير إن جسمى عاجز لا يمكنه القيام بأى شىء حيوى ، أحيانا لا أستطيع أن استدير ، لكنى لم أصب بالحنين إلى الماضى بعد . ذراعاى إذا كانتا فى الوضع الطبيعى ، فمن الممكن أن تكون بهما بعض القوة ، لكن من الصعب أن أتحكم فيهما ، كما أن لونهما الأحمر قد تلاشى . أرتعش قليلا ، قليلا فقط . صرير السرير جزء من حياتى لا أحب أن يختفى ، أقصد أن يقل . أستلقى على ظهرى ، لكن خدى على المخدة ، ما علىّ إلا أن أفتح عينىّ ليبدأ كل شىء من جديد ، السماء ودخان البشر ، بصرى وسمعى فى حالة سيئة جدا ، على العموم لا أرى ضوءاً ولكن ومضات معكوسة ، كل حواسى تعودت على جسدى . جسدى ، الظلام والسكون والبلى ، ولست ضحية لها ، وبعيد عن أن أسجن بين أصوات الدم والتنفس .

لن أتحدث عن آلامى ، حين أغوص عميقا فيها لا أشعر بشىء ، وهناك أموت مجهولا لجسدى الغبى ، ذلك الجسد الذى يرى يصرخ ويتلوى ، بقاياى المعتوهة تتصارع فى مكان ما فى هذا الفكر المضطرب ، علامة الموت الكبيرة ، إنها تطلبنى كما تفعل دائما حيث لا أوجد ، ولا تستطيع أن تظل ساكنة ، فلتصب نقمتها المحتضرة على الآخرين وتتركنى فى سلام . هكذا تبدو حالتى الراهنة .

★★★

اسم الرجل «سابوسنكات» ، مثل أبيه ، أهو اسم مسيحى ؟ لا أدرى ، إنه لا يحتاج لاسم ، أصدقاؤه يدعونه «سابو» ، ولكن أى أصدقاء ؟ لا أعرف: بضع كلمات عن صباه ، فلا يمكن تجنب ذلك .

كان ولدا مبكر النضوج ، لم يكن مجتهدا فى دروسه ، ولم ير فيها أية جدوى . التحق بالمدرسة وعقله فى مكان آخر ، أحب الحساب لكن ليس بالطريقة التى يعلمونه بها ، ما أحبه هو التلاعب بالأعداد المميزة لا المجردة . كل الحسابات بدت له تافهة حين لا تحدد طبيعة الوحدات ، وقام بالتدرب وحده أو مع مجموعة ، على الحساب العقلى ، وتزاحمت فى ذهنه الأرقام محملة بالألوان والأشكال المميزة .

يا له من ملل .

كان الطفل الأكبر لوالدين مريضين فقيرين ، وكان يسمعهما غالبا ، يتحدثان عما يجب عمله ليصبحا غنيين وفى صحة جيدة ، وكان يصدم كل مرة بغموض هذه الثرثرة ، ولم يدهش إذا لم تسفر عن نتيجة . كان والده بائعا فى حانوت ، واعتاد أن يقول لزوجته يجب أن أجد عملا إضافيا فى الأمسيات وبعد ظهر السبت ، ويضيف بخفوت وأيام الأحد أيضا . وتجيب الزوجة إذا قمت بعمل إضافى فستقع مريضا . وكان يوافق بأن العمل يوم الأحد ، يوم الراحة ، أمر سىء . الناس الذين ينصحونه بعدم العمل كبار فى السن ، وصحته ليست ضعيفة بحيث لا تسمح له بالعمل فى الأمسيات وتسأل زوجته أى عمل ؟ أى عمل هذا ؟ ويرد : نوع من أعمال السكرتارية ، فتقول : ومن يعتنى بالحديقة ؟ كانت حياة «سابو» مليئة بالبديهيات ، إحداها على الأقل ، تتمثل فى هذا العبث الإجرامى المسمى بالحديقة التى لا تحتوى أية زهور ولا يعتنى أحد بممراتها أو خضرتها . ويقول الزوج : يمكننى أن أزرع الخضراوات ، وترد الزوجة : شراؤها أرخص . ويعجب «سابو» من هذه المناقشات ، وتقول أمه : فكر فى سعر السماد . وفى

لحظات الصمت التى تتلو ذلك ، يستنفر الزوج عقله ليفكر بأسعار السماد التى تمنعه من توفير الراحة لأسرته . بينما الزوجة تستعد لاتهام نفسها بعدم قيامها بكل ما تستطيعه . ولكنها تقتنع بسهولة بأن قيامها بأى جهد إضافى سيعرضها لخطر الموت قبل الأوان ، ويقول الزوج : فكرى فى أجرة الأطباء التى نوفرها ، وتقول الزوجة : وفواتير الصيدلى .

لم يبق سوى أن نتخيل بيتا أصغر ، وتقول الزوجة : نحن فى ضيق هنا فكيف ببيت أصغر ، ويبدو مفهوما أنه بمرور سنة وراء أخرى ، سيصبحان كذا عددا حتى اليوم الذى يغادر فيه المولود الأول البيت مفسحا مكانا لمولود جديد ، نوع من التوازن ، ورويدا رويدا يفرغ المنزل ، ويكونان وحدهما فى النهاية مع ذكرياتهما ، وسيكون لديهما آنذاك وقت كاف للحركة ، فهو قد أحيل إلى المعاش ، وهى فى أنفاسها الأخيرة ، سيأخذان كوخا فى الريف حيث لا يحتاجان إلى السماد فبإمكانهما الحصول عليه بكميات وفيرة ، وسيشكرهما الأولاد على تضحياتهما ويأتون لمساعدتهما .

وهكذا فى مثل هذه الأجواء من الأحلام المنطلقة تنتهى المناقشات . ويبدو أنهما يستمدان قوتهما من أحلام عجزهما . لكن ، أحيانا ، قبل الوصول إلى تلك المرحلة ، يتوقفان ليتدبرا أمر مولودهما الأول ، فيسأل الزوج : كم عمره الآن ؟ وتجيبه الزوجة ، فلقد اتفق على أن هذا من اختصاصها ، وكانت دائما على خطأ . ويبدأ الزوج بترديد الرقم المغلوط مرات ومرات وكأنه يتساءل دهشا عن ارتفاع أسعار سلعة مهمة كاللحمة مثلا ، وفى الوقت ذاته يبدأ البحث فى مظهر المولود عن تأكيد لما سمعه من زوجته ، أليس قطعة لحم لطيفة ؟ وينظر الولد فى وجه أبيه ، وجه حزين محب مدهوش ، محبط لكنه راض رغم كل شىء . هل سينشأ فى سنوات قاسية لاحقة أو يطمئن عليه حتى يحصل على وظيفة ؟ أحيانا

يعبر عن أسفه بقلق بأن ابنه لن يكون أكثر حماسة منه للاستفادة من المكان . وتقول الزوجة : من الأفضل أن يستعد لامتحاناته .

وهو موضوع طرأ على ذهنه مما يوضح أن تفكيرهما يعمل بانسجام . لم تكن محادثاتهما كلاما عاديا ، فهما يستخدمان الكلمات كاستخدام حارس القطار أو عامل الاشارة لأعلامه أو مصباحه ، فيقولان : هاهنا ننزل . ويتساءلان فى حزن ما إذا كان السقوط المشين فى الإجابة التحريرية والنجاح الساخر فى الامتحان الشفوى هو علامة العبقرية ، حيث كان هذا حال ابنهما ولا يكتفيان عند هذا الحد بالصمت ، فيقول الزوج وهما يتثاءبان : على الأقل صحته جيدة ، وتقول الزوجة ليس تماما ، ويقول : لكنه غير مصاب بمرض محدد ، وتقول : شىء جميل لمن هم فى سنه . ولا يعرفان لماذا التزم الأب العمل فى مهنة حرة ، وذلك موضوع أخر لم يناقشاه ، وتخيلا ولدهما طبيبا يعتنى بهما حين يكبران ، ويعلن الزوج : أفضل أن أراه جراحا .

ما هذا الملل ؛ وأسمى ذلك لعبا ! أتساءل ما إذا كنت أتحدث ثانية عن نفسى ؛ هل أصمد إلى النهاية فى الحديث عن موضوع لا يخصنى ؛ أحس بالظلام القديم يتجمع ، والعزلة تستعد ، فيهما أعرف ذاتى ، ونداء المجهول النبيل ، شديد الجبن .. لقد نسيت ما سبق أن قلته ، لا يكون اللعب بهذه الطريقة . فأنا لم أعرف بعد من أين أتى «سابو» أو ما هى آماله ، ربما من الأفضل ترك هذه القصة والانتقال إلى القصة الثانية ! والأحرى الثالثة . تلك التى تتحدث عن حجر ، لا ، فسيتكرر الشىء نفسه ، يجب أن أكون على حذر ، أتأمل ما قلته ، فكل توقف كارثة تهددنى، يجب أن أتجنب النظر إلى ذاتى ، فلا يوجد حل أخر . بعد حمام الوحل سأكون أقدر على الصبر على عالم لم يلوثه وجودى ، يا له من طريق إلى العقل . سأفتح عينى وأنظر إلى كومة ممتلكاتى الصغيرة ، وألقى بالأوامر المعتادة إلى جسدى وأنا أعرف أنه لن يطيع . أتحول إلى روحى المتجهة إلى الهلاك ،

أفسد سكرة الموت ، الأفضـــل أن أعيـش بعيدا عن هذا العالم الذى يفغر فاه ليدعنى أمر .

★★★

حاولت أن أفكر مليا فى بداية قصتى ، هناك أشياء لا أفهمها ، ولكن ليس هناك شىء محدد أشير إليه . إذن يمكننى الاستمرار .

سابو لم يكن له أصدقاء - لا ، ذلك لن يجدى . سابو كان على علاقة طيبة بأصدقائه القليلين ، مع أنهم ، فى الحقيقة ، لا يحبونه . الغبى نادرا ما يكون وحيدا ، كان يلاكم ويصارع جيدا ، سريع القدمين ، يسخر من معلميه وأحيانا يجيبهم باجابات وقحة . سريع القدمين ؟ حسنا . يوما ما وقد مل من الأسئلة ، صاح : ألم أقل لكم إنى لا أعرف . معظم وقت فراغه كان يقضيه محبوسا فى المدرسة لإنهاء واجباته التى كلف بها ، ولا يعود إلى البيت ، فى معظم الأحيان ، قبل الثامنة . وتذرع بالفلسفة تجاه هذا الازعاج ، لكنه لم يدع أحدا يضربه ، أول مرة استشاط منه أحد المدرسين غضبا وهدده بعصا ، اختطفها «سابو» منه ورمى بها من النافذة التى كانت مغلقة بسبب الشتاء ، وكان هذا كافيا لتهدئة غضبه . ولم يفصل من المدرسة ، سواء آنذاك أو فيما بعد . لابد أن أحاول واكتشف ، حين يكون لدى الوقت لأفكر بهدوء ، لماذا لم يفصل «سابو» وهو يستحق ذلك بجدارة ؟ قلت ذلك لأنى أريد بعض الغموض فى قصتى ، الغموض القليل فى حد ذاته ، وفى هذا الوقت لا يشكل شيئا ، فأنت لا تتوقف عنده كثيرا وتستمر . لكنى أعرف ما هو الغموض ، إنه يتراكم ويتراكم ويزداد كثافة ، ثم ينفجر فجأة مغرقا كل شىء .

لم استطع أن أكتشف لماذا لم يفصل سابو ، وسأترك هذا السؤال مفتوحا . أحاول ألا أكون سعيدا ، سأتعجل لأضع عازلا آمنا بينه وبين هذا التساهل غير المفهوم ، سأجعله يعيش كما لو أنه عوقب علي فعلته بما يستحقه ، سنديرظهورنا

لهذه السحابة الصغيرة ، لكن لن ندعها تغيب عن أنظارنا . لن تحجب السماء دون معرفتنا ، لن نرفع أعيننا فجأة .

لنجد أنفسنا بلا عون ولا ملجأ ، تجاه سماء سوداء كالحبر . هذا ما قررته ، ولا أجد حلا آخر ، فهو أفضل ما يمكن أن أفعله .

فى سن الرابعة عشرة ، كان ولدا بدينا متوردا ، رسغاه مكتنزان ، وكاحلاه ضخمان لدرجة أن أمه قالت : سيغدو فى يوم ما أكبر من والده ، استنتاج عجيب لكن الأكثر غرابة فيه ، رأسه المدور الكبير ، الذى يعلوه شعر كتانى بغيض ، صلب وواقف كشعر الفرشاة ، حتى المدرسون ، لم يستطيعوا منع أنفسهم من التفكير بهذا الرأس المميز ، وأزعجهم أكثر فشلهم فى أن يضعوا شيئا فيه .

حين يكون أبوه حسن المزاج ، يقول : فى يوم من الأيام سيدهشنا جميعا ، والفضل يرجع لجمجمة «سابو» التى أوحت بهذا الرأى المجافى للحقائق والمخالف للحكم الأكثر صوابا الذى نعلنه من وقت لآخر . لم يكن الأب يتحمل النظر فى عينى «سابو» ، ويبتعد عن طريقه حتى لا يراهما . وكانت زوجته تقول :

إن له عينا مثلك ، فيغتاظ ، ويحاول أن يكون وحيدا ليفحص عينيه فى المرآة . تقول الزوجة : إنها عين زرقاء فاتحة ، وأنت أقل فتحانا فقط .

كان «سابو» يحب الطبيعة ، ويهتم بها . كم هو أمر مزعج . أحب الطبيعة ، واهتم بالحيوانات والنباتات ، ويرفع عينيه تلقائيا إلى السماء ، ليل نهار . لكنه لا يعرف كيف ينظر إلى كل هذه الأشياء ، فالنظرات التى يلقيها عليها ، لم تعلمه شيئا ، فهو يخلط بين أنواع الطيور والأشجار ، ولا يستطيع التمييز بين محصول وآخر ، أو الربط بين الزعفران والربيع ، أو الأقحوان والخريف . ولا يثير تساؤلات حول الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وأحيانا تغريه معرفة هذه الأشياء الغريبة الجميلة ، فيريدها حوله طوال حياته ، ويستمد من جهله بها نوعا من الفرح ، قد يضخم الهمس حوله . يحب طيران الصقر ، ويستطيع تمييزه من كل

الطيور ، يقف مأخوذا ، محدقا بالتحليق الطويل ، والتوازن المهتز، وارتفاع الأجنحة للهبوط الثقيل ، والصعود المتوحش ، مبهورا بهذه الأبعاد المفرطة من الحاجة والفخر والصبر والوحدة .

★★★

لن استسلم . أنهيت حسائى وأبعدت الطاولة الصغيرة إلى مكانها قرب الباب ظهر ضوء فى إحدى النافذتين فى البيت الذى فى الناحية الأخرى من الشارع . أعنى بالنافذتين ، ما يمكن أن أراه من مكانى دون رفع رأسى عن المخدة ، ولا أعنى النافذتين بكاملهما ، فأنا أرى واحدة كاملة وجزءا من الأخرى وهى التى ظهر فيها الضوء استطعت أن أرى المرأة ، للحظة ، تذهب وتجئ ، ثم أسدلت الستارة . لن أراها حتى الغد ، ربما ظلها بين حين وآخر ، لا تسدل الستارة دوما، لم يعد الرجل بعد إلى البيت . طلبت بضع حركات من ساقى وقدمى ، أعرفها جيدا وأستطيع أن أشعر بالمجهود الذى تقوم به لتطيع ، عشت معها هذا الوقت القصير من الزمن ، مملوءا بالدراما ، بين الرسالة التى تتلقاها والاستجابة التعسة . يأتى يوم على الكلاب الكبيرة فى العمر ، حين يصفر لها سيدها والعصا فى يده ، ولا تستطيع أن تقفز وراءه ، تبقى فى وجارها او سلتها غير مربوطة ، تستمع لصوت الخطوات وهى تتلاشى ، ويكون الرجل حزينا أيضا ، لكن سرعان ما يعزيه الهواء النقى والشمس ، ولا يفكر فى رفيقه العجوز حتى المساء ، حين يرحب به الضوء فى بيته ، ونباح ضعيف يجعله يقول : لقد حان الوقت لوضع حد لحياته.

قريبا ستتحسن الأمور ، وتكون الأشياء أفضل ، سأنقب قليلا فى ممتلكاتى ، ثم أضع رأسى تحت البطاطين . وستتحسن الأمور بالنسبة لسابو ومن يتبعه ، ذلك الذى لا يسأل شيئا سوى تتبع خطواته بطرق واضحة ومحتملة .

برودة طبع «سابو» ، وهدوء حالاته ، وسكونه لا يبعث السرور فى النفس ، فى وسط الصخب ، فى المدرسة أو البيت ، يظل ساكنا، واقفا فى مكانه غالبا ، محدقا أمامه مباشرة بعينين شاحبتين ثابتتين كعيون النورس .

ويتساءل الناس ماذا يرى وهو فى هذه الحالة، ساعة بعد ساعة ؟

افترض والده إنه ضحية لأول بوادر البلوغ الجنسى ، ويقول : كنت مثله وأنا فى السادسة عشرة . وتقول زوجته : كنت آنذاك تعمل وتكسب ، ويرد عليها : وكنت كذلك أيضا .

لكن من وجهة نظر مدرسيه، كانت الأعراض تدل على عقل مسلوب، ساذج وبرئ. ويسقط «سابو» فكه ، ويتنفس من فمه ، وليس من السهل أن ترى فى عفوية هذا التعبير تناقضه الكبير مع الأفكار الشهوانية . وفى الواقع ، فإن حلمه حول نفسه وحياته الخاصة ومستقبله أكثر من حلمه بالفتيات ، وذلك فيه ما يكفى لوقف الضجة حول الولد الحساس صافى الذهن ، الذى يرخى فكه مؤقتا .

حان الوقت لأخذ راحة قصيرة من أجل السلامة .

★★★

لا أحب عيون النورس هذه ، تذكرنى بحطام سفينة قديمة ، نسيتها . أعرف إنه أمر بسيط ، لكن يسهل إخافتى الآن ، هذه العبارات القصيرة ، التى تبدو بريئة غير ضارة ، ما إن تضعها فى كلامك حتى تلوث الحديث كله . لاشئ أكثر حقيقة من لا شئ ، إنها تخرج من نقرة ولا تدعك تعرف الراحة حتى تجرك إلى عمق ظلامها . لكنى منتبه الآن .

ثم كان نادما بأنه لم يتعلم فن التفكير ، يبتدئ بثنى الأصبع الثانى ثم الثالث والأفضل وضع السبابة على الفاعل ، والبنصر على الفعل كما علمه مدرسه . وهو نادم أيضا بأنه لا يستطيع أن يخرج بمعنى من البلبلة المحتدمة فى رأسه ، شكوك

ورغبات وخيالات ومخاوف . قوة وشجاعة أقل ، قد يتخلى عنهما يائسا من معرفة نوع الكائن الذى كانه ، أو كيف سيعيش وهو قد عاش مهزوما ، أعمى ، فى عالم مجنون وسط غرباء .

كان يخرج من أحلام يقظته هذه ، متعبا شاحبا ، مما يؤكد لأبيه إنه ضحية تأملات داعرة . يجب أن يلعب مباريات أكثر . فينجح ويتقدم . قالوا إنه سيكون رياضيا جيدا ، وهو الآن ليس عضوا فى أى فريق. وتقول السيدة «سابو سكات»: إن مذاكرته تأخذ كل وقته ، ويقول السيد «سابو سكات» : ودائما هو الأخير . وتعود السيدة لتقول : إنه مغرم بالمشى ، النزهات الطويلة فى الريف تفيده . ويربد وجه السيد وهو يفكر فى نزهات ولده الطويلة وحده ، والفائدة التى تعود عليه منها أحيانا تحمله على القول : من الأفضل لو علمناه صنعة . ويخرج «سابو» آنذاك كالعادة ، غير مضطر ، فتقول أمه «أوه يا أندريان .. لقد جرحت إحساسه» .

نحن نتقدم . لا شئ أقل شبها بى مثل هذا الولد المريض العاقل ، يناضل سنوات ليلقى ببعض الضوء على ذاته ، شره لأى شعاع ، غريب لمسرات الظلام . هذا هو المناخ الذى أحتاجه حقيقة ، هواء رقيق عليل ، بعيدا عن العتمة التى تغذينى وتقتلنى ، لن أعود أبدا إلى هذه الجثة إلا فى لحظات النزع الأخير ، أريد أن أكون هناك برهة قبل الغطس ، أغلق للمرة الأخيرة هذه الفتحة الصغيرة فوقى وأقول وداعا للمأوى الذى عشت فيه ، وأنزل مع ملاذى .

كنت دائما عاطفيا . وبين حين وآخر ، كان لدى الوقت لألهو على الشاطئ المجهول بشجاعة لرفقة تشوقت إليها طويلا ، وبحثت عنها دائما ، ولم تملكنى قط. نعم ، عقلى الآن متفتح وأعرف أنى كسبت اللعبة وفقدتهم جميعا . لكن المهم هو النهاية ، يمكن القول : إنجاز جميل جدا ، أو بالأحرى سيكون جميلا حتى لا أناقض نفسى . إذا استمر هذا ، فذاتى هى التى سأفقدها ، وآلاف الطرق تقود إلى ذلك . وسأشبه المشهورين التعساء فى الخرافات ، المسحوقين تحت ثقل وهم

تحقيق أمانيهم ، حتى أنى شعرت برغبة غريبة تغزونى ، الرغبة فى معرفة ما أفعله، ولماذا أفعله ؟ وهكذا وأنا قريب من الهدف، عدت لأيامى الأولى التى حرمتنى من الحياة ، وعلى عتبة التلاشى ، نجحت أن أكون شخصا آخر . شئ جميل !

★★★

إجازات الصيف . فى الصباح يأخذ دروسا خصوصية . قالت السيدة «سابو سكات » : ستفقرنا وعلق السيد «سابو سكات» : إنه استثمار جيد. بعد الظهر ، يغادر البيت وكتبه تحت ابطه بحجة إنه يذاكر أفضل فى الهواء الطلق . كلا ، إنه لا ينبس بكلمة .

وما إن يغادر البلدة حتى يخبئ كتبه تحت حجر ، ويبدأ يجوب الريف . كانت النهارات الطويلة المشرقة قصيرة لما يجب أن يفعله العمال والفلاحون فى نوباتهم وغالبا ، يستفيدون من ضوء القمر ليقوموا بجولة قصيرة وسط الحقول، بعيدا إلى الأجران أو لأرض درس الحبوب، أو لفحص الآلات واعدادها للفجر الوشيك ، الفجر الوشيك .

رحت فى النوم ، لا أريد النوم ، لا وقت له فى جدول مواعيدى لا أريده ، لكنى غفوت وليس لدى تفسير لذلك . الاغماء للأحياء ، الأحياء . وهم دائما أكثر مما أحتمل ، لا أعنى جميعهم ، رأيتهم وأنا أتأوه بضجر ، يأتون ويذهبون ، قتلتهم ، أو أخذت مكانهم ، أو هربت . أشعر بداخلى وهج ذلك الهياج القديم ، وأعرف إنه سيشعلنى نارا لا أكثر ، أوقف كل شئ وانتظر .

سابو يقف على ساق واحدة ، بلا حركة . عيناه الغريبتان مغلقتان ، وهياج اليوم يتجمد فى آلاف الأوضاع العبثية ، وتتحرك سحابة صغيرة أمام شمسهم المجيدة ، وستظلم الأرض بقدر ما أسعد بذلك .

عش وأبدع ، لقد حاولت ، لابد أنى حاولت . أبدع . إنها ليست الكلمة ، ولا كلمة عش . لا مشكلة . لقد حاولت.، بينما وحش الجدية المفترس يطن بداخلى صاعدا هابطا ، يزأر يمزق ويلتهم . فعلت ذلك وحدى تماما . لعبت دور المهرج مختبئا جيدا ، وحدى تماما ، ساعة بعد ساعة بلا حراك ، واقفا معظم الوقت ، مسحورا ومتأوها . ذلك صحيح ، فأنا أتأوه ولا أستطيع اللعب . درت حول نفسى حتى دخت ، صفقت بيدى ، جريت وصرخت ، رأيتنى أفوز ، ورأيتنى أخسر ، أفرح وأحزن ، ثم فجأة ألقى بنفسى علي أدوات اللعب ، إذا كان هناك أدوات لعب أو على طفل لأجعل من فرحته عويلا ، أو أهرب لاختبىء . يتبعنى الكبار العادلون ، يمسكون بى ، يضربوننى ، يطاردوننى إلى الدائرة ، اللعبة ، البهجة ، لأنى مازلت بالفعل فى دوز الجدية الشاق . ذلك كان مرضى . لقد ولدت جادا كما يولد البعض مصابا بالسفلس ، وبجدية كافحت لأكون جادا لأكثر . أن أعيش وأبدع . أعرف ما أعنيه ، ولكن عند كل محاولة جديدة أفقد عقلى ، أهرب إلى ظلالى كما يهرب المرء إلى معبد ، أو إلى معمله حيث لا يستطيع أن يعيش ويقاسى رؤية الآخرين يعيشون . أرى الحياة دون أن أعرف ماهى . حاولت أن أعيش دون أن أعرف ما أفعله أو أحاول أن أفعله ، وعشت على الرغم من ذلك ، دون أن أعرف . أعجب لماذا أتحدث عن كل هذا ! نعم لاتخلص من الملل . عش ودع غيرك يعيش ، لا فائدة من الشكوى من الكلمات ، فهى ليس أردأ مما تحاول قوله .

بعد الفشل الذريع ، والسلوان ، والاطمئنان ، بدأت ثانية ، أحاول أن أعيش وأدع غيرى يعيش ، وأن أكون شخصا آخر ، فى ذاتى وفى هذا الآخر ، كم هو زائف هذا القول ، لا وقت لدى للشرح . بدأت ثانية ، رويدا رويدا ، وبهدف مختلف، ليس من أجل النجاح ، بل من أجل الفشل ، فارق دقيق . وما بحثت عنه، حين صارعت للخروج من جحرى ، ثم محلقا فى الهواء اللاسع تجاه نعمة صعبة المنال ، كان نشوة الدوار، والانطلاق ، السقوط ، الهاوية ، الارتداد للظلمة ، للعدم

للجدية ، للبيت ، إليه المنتظر دوما ، الذى يحتاجنى وأحتاجه ، من أخذنى بين ذراعيه ، وأخبرنى أن أبقى معه ، أعطانى مكانه واعتنى بى ، وقاسى فى كل مرة أتركه فيها ، والذى جعلته يقاسى دائما ، ونادرا ما أرضيته ، وما رأيته قط. هأنذا أنسى نفسى ثانية . اهتمامى ليس مع ذاتى ، بل مع الآخر، البعيد عنى ، والذى أحاول أن أحسده ، أستطيع أن أروى ، أخيرا ، مغامراته المستحكمة ، لكن لا أعرف كيف . عن نفسى لا أستطيع أن أتحدث ، كل ما يمكننى عمله أن أعيش واتحدث عن الآخرين . كيف يستطيع من لم يحاول ؟ أن أحكى عن ذاتى الآن ، فى لحظة التلاشى ، وفى الوقت عينه كمن أحكى عن غريب ، وبالبراعة ذاتها ، فلن تكون تلك قشة أخيرة عادية . إذن عش ، طويلا ، حتى أشعر بعينين أخريين وراء عينى المغلقتين . يالها من نهاية .

★★★

السوق. لم تفت الشاب المتميز صور التعامل بين المناطق الريفية والحضرية لقد حشد لهذا الموضوع عدة اعتبارات بعضها قريب من الحقيقة والبعض بعيد عنها .

فى بلده تكمن المشكلة فى - لا ، لا أستطيع أن أقول .

الفلاحون . زيارته لهم . يتجمعون فى فناء المزرعة ، يراقبونه وهو يغادر يتعثر، يطوح بقدميه كأنه لايدوس على أرض ثابتة – يتوقف كثيرا ، يتمايل قليلا ، ثم ينطلق ، فجأة فى اتجاه جديد . وهكذا يذهب ، يعرج ، يتطوح ، كأن أحدا يخبطه بالأرض ، وحين ينطلق بعد توقف ، فكأنه شوكة كبيرة نزعها الريح من مكانها . هناك اختيار للصور فى هذه الحالة .

نبشت قليلا فى أشيائى ، أصنفها وأقربها ناحيتى لأنظر إليها . لم أجانب الصواب حين قلت أنى أعرفها عن ظهر قلب ، وأستطيع التحدث عنها فى أية لحظة دون النظر إليها . لكنى أردت التأكد فقط ، وحسنا فعلت ، لأنى أعرف الآن

أن صورة هذه الأشياء التى اطمأننت إليها ، على الرغم من صحة اساسياتها ، إلا أنها لم تكن كذلك تماما . سأكون نادما لو أهملت هذه المناسبة الفريدة التى تقدم لى امكانية التحقق من مشكوك فيه إلى يقين . قد أفشل فى مهمتى ، لكنى أريد أن يتم هذا الأمر دون أية آثار من التقريبية . أريد حين يأتى اليوم الكبير أن أكون فى موقع يسمح لى أن أعلن بوضوح دون حذف أو إضافة ، أن البداية اللامتناهية التى أحضرتنى هنا ، تركتنى بممتلكاتى الشخصية كاملة . ربما يكون ذلك نوعا من الاستحواذ .

لقد رأيت آنذاك ، أنى نسبت إلى نفسى أشياء معينة لم تعد ضمن ملكيتى على ما أظن . أليس من المحتمل أن تكون قد تدحرجت وراء قطعة من الاثاث ؟

سيدهشنى ذلك . حذاء برقبة مثلا ، هل يمكن أن يتدحرج خلف قطعة من الاثاث؟ فأنا لا أرى سوى فردة واحدة منه ، وإذا تدحرج فوراء أية قطعة ؟ فى هذه الغرفة ، حسب معرفتى الجيدة ، هناك قطعة واحدة من الاثاث يمكن أن تقف بينى وبين ممتلكاتى ، أقصد الدولاب ، لكنه ملتصق بالحائط ، بالحائطين بالأحرى لأنه موضوع فى زاوية حتى إنه يبدو جزءا منهما . وقد يعترض أحد بقوله إن الحذاء ذا الازرار ، فهو كذلك ، داخل الدولاب . فكرت فى ذلك ، لكنى فتشته بدقة عصاى جالت فيه ، فتحت الأبواب والادراج ، ربما لأول مرة ، ونقبت فى كل مكان . ليس فى الدولاب حذاء أو أى شئ آخر . كان فارغا .

أنا الآن بلا حذاء ، كما أننى أفتقد أشياء معينة أقل قيمة ، أعتقد أنى كنت احتفظ بها ، من بينها خاتم من الزنك يشع كالفضة ، كما ألاحظ ، فى الكومة وجود أشياء نسيتها تماما ، واحدة منها ، على الأقل ، طاسة غليون ، لا تهز وترا فى ذاكرتى . لا أذكر أنى دخنت غليونا ، اذكر فقط أنبوبة فقاقيع الصابون التى أعتدت وأنا طفل أن انفخ فيها لتخرج فقاقيع غريبة . لا مشكلة ، هذه الطاسة ملكى الآن ولا يهم من أين جاءت . عدد من كنوزى جاء من المصدر عينه .

اكتشفت أيضا ربطة صغيرة ملفوفة بورقة جريدة صفراء قديمة ، تذكرنى بشئ ما، لكن ماهو ؟ سحبتها قرب السرير وتحسستها بطرف العصا ، وفهمت يدى ، النعومة والخفة أفضل مما لو لمست الشئ مباشرة ، سواء زرته بكفى أو تحسسته بأصابعى . قررت ألا أفتحها ، لا أدرى لماذا ، دفعتها إلى الركن ثانية مع باقى الأشياء . ربما أتحدث عنها ثانية حين يأتى الوقت . سأقول وأكاد أسمع نفسى : هناك ربطة صغيرة ، طرية وخفيفة كالريشة ، ملفوفة بجريدة قديمة . ستكون سرى الصغير ، ربما مائة ألف روبية ورقية ، أو خصلة شعر .

قلت لنفسى : لابد أن أسرع ، فالحيوات الحقيقية لا تتسامح مع هذا البطء المفرط ، فالشيطان يتربص مثل المكروب فى طيات البروستاتا ، ووقتى محدود ، فمن هنا ، وذات يوم جميل تبتسم فيه الطبيعة وتسطع ، سيطلق الخراب كتائبه السوداء التى لا تنسى ، لتكنس كل الجمال وللأبد .

موقفى دقيق بالفعل ، يا لها من أشياء جميلة ومهمة ، سأفتقدها عبر الخوف ، الخوف من السقوط فى الخطأ القديم ، الخوف من عدم الانتهاء فى الوقت المناسب، والتمتع للمرة الأخيرة بالانهمار الأخير للبؤس والعجز والكراهية الاشكال كثيرة ، تلك التى يبحث الثبات فيها عن راحته من عدم تشكله . دائما أخضع للفكر العميق ، خاصة فى الربيع ، وذلك يلح علىّ خلال الدقائق الخمس الماضية . أجازف فى أن آمل ألا يكون هناك مزيد من ذلك العمق . ليس مهما ألا تنهى ما عليك ، فهناك ماهو أسوأ من التردد ، لكن هل تلك هى المشكلة ؟ أظن ذلك . كل ما أطلبه أن تعيش بقيتى هذه ، قدر ما تبقى ، من أجل فكرتها . هذا كل شئ ، وأنا أعرف ما أعنيه . كل ما أطلب معرفته قبل أن أهجر هذا الجسد ، الذى بدأ حياته بشكل جيد، أن موتى ، وموتى وحده ، هو الذى سيمنعه من الحياة، من الفوز والخسارة ، من الفرح والمعاناة ، من التعفن والموت ، وأننى

لو عشت لانتظر قبل أن يموت ، أن أموت أولا . ذلك ما يمكن تسميته بطى الشراع .

جسدى لم يتخذ قراره بعد ، أتخيل وزنه أثقل على السرير ، تمدده وانتشاره ، حين أخرج أنفاسى تملأ الغرفة بضجيجها ، مع إن صدرى لا يتحرك إلا كطفل نائم . أفتح عينى وأحدق طويلا فى سماء الليل دون أن أرمش . كم هى ضئيلة الفتحة التى أنظر منها ، بينى وبينها لوح زجاجى مغبش وملطخ بقذارة السنين ، أود لو أتنفس عليه ، لكنه بعيد جدا . إنها ليلة كالليالى التى أحبها «كاسبار فريدريك» ، عاصفة وساطعة . ذلك الاسم الذى يخطر ببالى ، يا لتلك الأسماء . تندفع السحب ، تبليها الرياح ، عبر أرض رخوة . لو كان لدى الصبر لأنتظر ، ربما رأيت القمر، لكنى لا أملك الصبر ، الآن وقد نظرت ، فأنا اسمع الرياح ، أغلق عينى فتختلط مع أنفاسى . الكلمات والصور تعربد مسرعة فى رأسى ، تتتابع وتطير وتصطدم وتندمج بلا نهاية . ولكن وراء هذه الجلبة ، هناك هدوء كبير ولا مبالاة هائلة ، لا يزعجها أى شئ .

استدرت قليلا على جانبى ، ضاغطا فمى على المخدة . دافسا أنفى فيها شعرى العجوز ، لاشك إنه أبيض كالثلج ، سحبت البطانية فوق رأسى . شعرت فى أعماقى بأنى لن أكون أكثر صحة ، الآلام ، التى تبدو جديدة ، تتركز أساسا فى الظهر . لها نوع من الايقاع ، بل من النغمة الصغيرة ، لابد أنها مزرقة . كم يحتمل المرء يا إلهى . رأسى فى وضع خاطئ تقريبا ، مثل رأس طائر ، فتحت شفتى ، المخدة الآن فى فمى ، أمتصها ، البحث عن نفسى قد انتهى ، أنا مدفون فى العالم ، أعرف أنى سأجد مكانى يوما ما هناك ، فالعالم القديم يعزلنى منتصرا ، أنا سعيد بذلك ، عرفت أنى سأكون سعيدا يوما ما ، لكنى لست حكيما، فالحكمة تتطلب أن أنطلق الآن . فى هذه اللحظة من السعادة ، لكن ما الذى أفعله بدل ذلك ؟ أعود ثانية إلى الضوء والحقول ، وأتشوق إلى الحب وإلى سماء تموج بسحب صغيرة بيضاء خفيفة كشرائح الثلج ، إلى حياة لم أستطع أن

أعيشها ، بسبب أخطائى طبعا ، وكبريائى وتفاهتى . لا أعتقد ذلك . الوحوش فى المرعى ، والشمس تدفئ الصخور وتلمعها . أترك سعادتى وأعود إلى جنس البشر الذين يجيئون ويروحون بأوزارهم ، ربما حكمت عليهم حكما خاطئا ، لا أعتقد ذلك ، فأنا لم أحكم عليهم إطلاقا . كل ما أريده ، الآن ، بذل جهد أخير كى أفهم ، أن أبدأ الفهم . كيف يمكن أن توجد مثل هذه المخلوقات ! لا ، هذا ليس سؤالا للفهم . لم إذن ؟ لا أعرف . هأنذا أسير بشكل خاطئ . ليل وعاصفة وندم واغماءات الروح . هذه المرة سأراهم خيرين . الكلمة الأخيرة لم تقل بعد بينى وبين .. بلى ، الكلمة الأخيرة قد قيلت ، ربما أود ، ببساطة ، أن اسمعها تقال ثانية مرة واحدة فقط لا . لا أريد شيئا .

★★★

آل لامبرت .

وجد آل لامبرت إن الحياة صعبة ، بمعنى أن يجعلوا الغايات تتقابل ، كان هناك الرجل والمرأة وولد وبنت . شئ ، على الأقل ، لا يتطلب الجدل . يطلق على الرجل «لامبرت الكبير» وكان ضخما بالفعل ؛ تزوج ابنة عمه الصغرى ومازال يعيش معها ، وهذا هو زواجه الثالث أو الرابع ، وله أولاد آخرون ، هنا وهناك ، رجال ونساء كبار منغمسون بعمق فى الحياة ، لا يرجون الكثير ، من أنفسهم أو من غيرهم . يساعدونه كل بطريقته ، عرفانا نحوه ، ويقولون : لو لم يكن هو ، فلابد أن يكون شخص آخر . كان كبيرا فى السن ، يدخن سجائره بمبسم ويأسف على غليونه . وهو مطلوب بشدة ، فهو يذبح ويسلخ ويقطع الخنازير جيدا ولا أبالغ فى هذه المقدرة ، فأجرته كانت زهيدة ، أقل من الجزار ، فهو لا يطلب أكثر من قطعة من الفخذ ، أو حتى الرأس ، وهو أمر مقبول . كان ، غالبا ، ما يتكلم عن والده بحب واحترام ، ويقول : لن يكون هناك شبيه له إذا مت . ولابد أنه قال ذلك بكلمات مختلفة . أيامه العظيمة ، إذن ، تقع فى ديسمبر ويناير .

ومن فبراير حتى آخر العام ينتظر بفارغ الصبر عودة ذلك الموسم . الحادثة المهمة بالنسبة له بلا جدال ، وجوده فى زريبة فى عيد ميلاد المخلص ، ويتساءل هل يكتب له العمر حتى الموعد نفسه . ينطلق محتضنا تحت إبطه بحب ، حقيبة السكاكين الكبيرة التى سنها أمام النار فى الليلة السابقة ، وفى جيبه المريلة المخصصة لحماية ملابسه ، ملفوفة فى ورقة . ومجرد تفكيره بأنه فى طريقه إلى ذلك المسكن ، حيث الجميع فى انتظاره ، وإنه على الرغم من كبر سنه فهناك من يحتاج إليه ، وإن طريقته مفضلة عن أولئك الأصغر سنا ، فإن قلبه العجوز يبتهج . يعود من هذه المهمة ، إلى البيت متأخرا فى الليل ، سكرانا ، ومنهكا من الطريق الطويل وانفعالات اليوم . ولأيام عديدة تالية ، لا يتحدث عن شئ إلا عن الخنزير الذى أرسله .. كنت أود القول إلى العالم الآخر لولا وعيى بأنه ليس هناك عالم آخر للخنازير سوى هذا العالم . وذلك يسبب البلاء لعائلته ، ولا يجرؤون على الاحتجاج لأنهم يخافونه . بلى ، ففى سن ينكمش فيها معظم البشر ، ويجبنون كأنهم يعتذرون عن كونهم أحياء ، فإن لامبرت فى موقع يسمح له بعمل ما يريد ، وأن يبعث الخوف فى الآخرين ، حتى زوجته الصغيرة تخلت عن كل أمل فى إعادته إلى الصواب ، عن طرق أنوثتها ، تلك الورقة الرابحة فى يد الزوجات الصغيرات ، لأنها تعلم ماذا سيفعل بها إذا رفضت ، كما إنه يصر أن تقوم بفعل حركات تسهل عليه مهمته ، بطريق تبدو لها غالبا فاحشة ، وعند أقل بادرة تمرد منها ، يجرى إلى غرفة الغسيل ، ويعود بعصا يظل يضربها بها حتى تعود إلى رشدها حسب رأيه . كل هذا حديث جانبى ، فلنعد إلى خنازيرنا ، ومساء بعد مساء ، يعود لامبرت إلى الاسهاب فى الحديث ، إلى أحبائه وأقرب الناس إليه ، بينما المصباح تهمد شعلته ، عن الحيوان الذى ذبحه . ويظل هكذا حتى اليوم الذى يذبح فيه حيوانا آخر ، فتكون كل أحاديثه حول هذا الخنزير الجديد ، الذى لا يشبه السابق فى أية ناحية ، ويختلف عنه تماما ، مع أنها الشئ نفسه ، فكل

الخنازيرُ متشابهة إذا عرفت حيلها الصغيرة ، «فلفصتها» صراخها ، نزفها ، صراخ ، «فلفصة» ، نزف ، صراخ ثم تهمد . الطريقة نفسها ، بشكل أو بآخر ، أسلوبها الخاص الذى لا يمكن أن يقلدها فيه - جدى مثلا أو حمل . وما إن ينتهى شهر مارس ، حتى يستعيد لامبرت الكبير هدوءه ، ويعود ذلك الشخص الصامت ثانية .

الابن ، أو ولى العهد ، صبى ضخم جدا بأسنان رهيبة . مزرعتهم ، كانت تقع فى منخفض يطفح بالمياه شتاء ، وفى الصيف كأنها رماد بعد حريق . الطريق إليها ، يقع عبر مرعى جميل ، لا يملكه آل لامبرت ، بل هو لفلاحين يعيشون على بعد . وفى الموسم المناسب ، يزدهر المرعى بغزارة غير عادية بزهور النرجس والجونكول ، وهناك ، عند هبوط الليل ، يطلق لامبرت أغنامه لترعى بحرية . من الغريب ، إن موهبة لامبرت فى ذبح الخنازير ، تبدو لا تساعده حين يأتى الأمر لتربيتها ، ونادرا ما تجاوز ما يمتلكه منها عن تسعة ، يحشرها فى حظيرة ضيقة منذ يوم وصولها فى شهر ابريل ، حتى يوم ذبحها فى عيد الميلاد ، فلامبرت يستمر فى خوفه عليها ، مع أن كل سنة تمر تؤكد خطأ رأيه ، يخاف عليها ضوء النهار والهواء النقى . وتكون النتيجة خنزيرا ضعيفا نحيلا أعمى ، يلقيه على ظهره مربوط الأقدام ، ويقتله بسخط دون عجلة ، موبخه على جحوده بعلو صوته . دون أن يفهم أو يريد أن يفهم أن لا لوم على الخنزير ، وأنه الملام بطريقته الفاسدة ، ويصر على الخطأ .

***

عالم ميت . بلا هواء ولا ماء . هو كذلك . تعلل بذكريات ماضية . هنا وهناك . ظل عجوز ذاو فى سرير من صاج ، مصاب بمرض جلدى . وليال من ثلاثمائة ساعة . شاحبة ، بائسة ، تفتقد الاضواء ، أقل الاضواء سخافة . هى كذلك . ثرثرة . كم يستمر ذلك ؟ خمس دقائق ، عشر ، ربما لا أكثر . بقعة السماء التى

أراها مازالت فضية ، كم تستمر ؟ اعتدت فى الأيام الخوالى أن أعد الثلاثمائة أو الأربعمائة مع أشياء أخرى . الحمامات ، الاجراس ، شقشقة العصافير فى الفجر ، أو لا شئ ، بلا سبب ، إلا الرغبة فى العد ، ثم أقسم كل ذلك على ستين مما يجعل الوقت يمر . كنت الوقت . والتهمت العالم ، ليس الآن بالطبع فالانسان يتغير مع مضى حياته .

★★★

فى المطبخ القذر ، بأرضيته الترابية ، اتخذ «سابو» جلسته عند الشباك . ترك لامبرت الكبير وابنه عملهما ، وتقدما لمصافحته ، ثم خرجا وتركاه مع الأم والابنة ، لكنهما أيضا لديهما عمل ، فتركتاه وحيدا وذهبتا . عمل كثير ، ووقت قليل ، وأيد قليلة . تتوقف المرأة بين عمل وآخر ، أو فى منتصف أحد الأعمال ، لحظة ترفع فيها ذراعيها ، وحين لا تستطيع موازنة جسدها الثقيل ، تدعهما تسقطان ثانية ، ثم تبدأ فى تحريكهما بطريقة يصعب فهمها أو وصفها ، حركات تشبه ذراعا تنفض سجادة من التراب ، شديدة ومتراخية فى الوقت نفسه ، مع هزات متسارعة من الكفل ، وتبدو الايدى الفارغة كأنها أربع أو خمس فى نهاية كل ذراع ، وفى الوقت ذاته تتساقط من شفتيها أسئلة غاضبة بلا إجابة ، مثل ما الفائدة ؟ . ينسدل شعرها ليغطى وجهها . شعر كثيف رمادى قذر ، فليس لديها وقت لتصفيفه . وجهها شاحب ونحيل وكأنه محفور بقلق يرافقه حقد . الصدر .... لا ، المهم هو الرأس ثم اليدان اللتان تهبان لمساعدتها ، أما الأجزاء الأخرى التى تهتز وتتلوى فهى أقل أهمية . تستأنف عملها بحزن ، ترفع الاشياء وتغير مواضعها ، تقربها من بعضها أو تبعدها . ولم تكن هذه الحركات والتلويحات الصامتة موجهة إلى شخص بعينه ، ففى كل يوم ، تفعل ذلك عدة مرات ، داخل البيت وخارجه . ولا تهتم إذا شاهدها أحد ، أو أن ما تفعله يمثل ضرورة ملحة ، أو يمكن أن ينتظر ، لا ، إنها تلقى بكل شئ ، وتبدأ الصراخ والتلويح كأنها آخر

الأحياء ، وستموت بسبب ما يجرى لها ، ثم تصمت ، وتقف جامدة برهة ، قبل أن تستأنف ما تخلت عنه ، أو تبدأ عملا جديدا .

ويبقى «سابو» وحيدا عند النافذة ، أمامه على المائدة ، وعاء لبن الماعز ، وقد نسيه . الوقت صيف ، والغرفة معتمة على الرغم من الباب والنافذة المفتوحين على ضوء النهار الكبير . فمن خلال هاتين الفتحتين المتباعدتين ، يصب الضوء لينير مساحة ضئيلة ، ثم يتلاشى دون أن ينتشر ، ضوء ليس له انتشار ولا يستمر باستمرار النهار ، يدخل فى أية لحظة متجددا ، ثم يتلاشى فجأة ويفترسه الظلام، في فترة التلاشى تصبح الغرفة أكثر إظلاما حتى لا يمكن رؤية أى شئ ، فالظلام قد انتصر . وسابو ، وجهه إلى الأرض اللامعة التى تؤذى عينيه ، يشعر بالظلام القاهر حوله ، يلحس الضوء عن وجهه ، ويلتفت أحيانا فجأة ليواجهه ، ويتركه يغلفه ويتغلغل فيه بنوع من الراحة . فيسمع بوضوح أكثر ، أصوات الذين يعملون ، الابنة تنادى على غنمها ، الأب يلعن بغله ، لكن الصمت يكمن فى قلب الظلام ، صمت الغبار وتلك الاشياء التى لن تتحرك ، وصوت ساعة حائط غير مرئية ، يشبه صوت ذلك الصمت الذى يشبه الظلام ، الذى سينتصر يوما ما . حين يسكن كل شئ ويستريح إلى الأبد ، حتى الظلام . فى النهاية ، يخرج سابو من جيبه الهدايا البائسة التى أحضرها ، يضعها على المائدة ، ويذهب . لكن ، يحدث أحيانا ، قبل أن يقرر الذهاب ، أن تتقدم دجاجة نحو الباب المفتوح ، وتغامر بدخول المطبخ ، ما إن تتخطى العتبة حتى تتوقف ، إحدى رجليها مرفوعة قرب عجيزتها ، ورأسها يميل إلى جانب ، ترمش بقلق . ثم ، بثقة أكبر ، تتقدم قليلا برعشة وعنق ممدود . دجاجة رمادية ، كان سابو يعرفها جيدا ، الدجاجة الرمادية ، وبدا له إنها تعرفه جيدا أيضا . إذا قام ليذهب فلن تفر مرفرفة . لكن ربما هناك دجاجات رمادية كثيرة متشابهة لا تستطيع عيناه التمييز بينها لتشابهها . أحيانا تتبعها دجاجة أخرى وثالثة بل ورابعة ليس فيها شبه منها

سوى الشكل والريش . تبدى جرأة أكبر من الرمادية التى شقت طريقها أولا ولم يحدث لها ضرر ، تظهر بوضوح فى الضوء للحظة ، ثم يتلاشى وضوحها رويدا رويدا مع تقدمها ، حتى يخفيها الظلام . تظل صامتة فى البداية خوفا من الإعلان عن حضورها ثم تبدأ فى النبش والقوقأة للاطمئنان وإراحة ريشها القلق . لكن غالبا ، تأتى الدجاجة الرمادية وحدها ، أو واحدة من الدجاج الرمادى إذا فضلت قول ذلك ، فلا شئ يمكن التأكد منه ، وكل شئ جائز الحدوث دون مشكلة كبيرة . فكل المطلوب أن نعرف إذا كانت هناك دجاجة رمادية واحدة أو أكثر ، وهذا يحتاج إلى الوجود حين تنادى السيدة لامبرت على دجاجها وهى تنقر على صفيحة قديمة بملعقة عتيقة ، لكن فى النهاية ما الفائدة من ذلك ؟ من الممكن أن تكون هناك عدة دجاجات رمادية ، ولكن واحدة فقط هى التى اعتادت المجئ إلى المطبخ ، ولذا فالتجربة تستحق ، فمن الجائز أن تكون هناك دجاجة رمادية واحدة فى وقت إطعام الدجاج مما يحسم الأمر ، ومع ذلك فإنه أمر لن يعرف تماما أبدا . ففى اليوم الذى يتمكن فيه «سابو» من توضيح هذه النقطة ويرتاح عقله ، يكون الوقت قد فات ، فبعض الدجاج قد مات وبعضه قد نسى . ثم يندم لأنه لم يفهم فى الوقت المناسب أهمية هذه الساعات الطويلة التى يقضيها فى المطبخ ، لا هو داخل البيت ولا خارجه ، ينتظر أن يقف على قدميه ويغادر ، بينما هذا الطائر القلق الرمادى يقف مترددا على العتبة المضيئة ، ثم يقوقئ وينبش وراء الفرن هازا جناحيه الضامرين ، ويجعله يطير بسرعة بمكنسة وصرخات غاضبة ، ومن ثم يعود ثانية بحذر ، وخطوات قصيرة مترددة ، متوقفا ليصغى ، يفتح ويغلق عينيه الصغيرتين السوداوين اللامعتين . شئ من ضمن أشياء كثيرة يلاحظها ، يمضى بانطباع ساذج بأنه كان موجودا فى مشهد كل يوم الذى بلا فائدة .

خطا ليعبر العتبة ، رأى أمامه البئر برافعته والسلسلة والدلو . وغالبا ما كان يرى حبل الغسيل وعليه ثياب مهلهلة تتمايل وتجف فى الشمس . يمضى من خلال

الممر الصغير الذى جاء منه ، على حافة المرعى فى ظل أشجار كبيرة ، تحد مجرى للمياه فى قاعه فوضى من جذور متغضنة وصخور وطين غامق . يمضى دون أن يلاحظه أحد غالبا ، على الرغم من مشيته الغريبة ، ووقفاته وانطلاقاته المفاجئة ، أو ربما رآه آل لامبرت من بعيد أو قريب ، أو بعضهم عن قرب والبعض عن بعد ، يظهر فجأة من وراء الغسيل وينطلق عبر الممر ، فلا يحاولون أن يستوقفوه أو حتى يلقون عليه السلام . غير مستائين على تركه لهم بطريقة تفتقد الود ، لأنهم يعرفون إنه لا يقصد أية إهانة . أو ربما شعروا ببعض الضيق ، إلا أن هذا الشعور سرعان ما يزول بعد قليل ، حين يجدون على طاولة المطبخ ، الحقيبة الورقية المجعدة التى تحتوى على بعض الاشياء البسيطة ، من البضائع التى يبيعها الباعة الجائلون . هذه الهدايا المتواضعة .. آه كم هى مفيدة ، وهذه الآه تقال بشكل لطيف ، ويزيد لطفهم حين يرون وعاء لبن الماعز مملوءاً لمنتصفه أو لم تمسه يد على الإطلاق ، ولا يعتبرون ذلك إهانة كما تقضى التقاليد .

لكن يبدو عند التفكير ، إن مغادرة «سابو» نادرا ما تفوتهم ، لأنه عند أقل حركة فى أرضهم فى مرمى البصر ، يرفعون رؤوسهم ويحملقون بأعين واسعة ، عدا طبعا رفرفة أو تحليق طائر صغير . وحتى على الطريق الذى تبدو عليه الاشياء مرئية عن بعد ميل ، لا شئ يحدث دون معرفتهم . وهم قادرون ، ليس فقط على تحديد من يمر عليه وقد يبدو فى حجم رأس الدبوس ، بل يعرفون أذاهب هو أم قادم ولأى سبب ، ثم يصيحون بالأخبار ، الواحد إلى الآخر ، لأنهم يعملون على مسافات متباعدة ، أو يتبادلون الاشارات وقوفا ، متجهين نحو الهدف ، قبل أن ينحنوا لمواصلة العمل ، وفى أول فرصة للراحة يأخذونها ، ويتجمعون حول المائدة أو فى مكان آخر ، يقدم كل واحد تفسيره لما رآه ، ويستمع لآراء الآخرين ، وإذا بدا أنهم لا يتفقون حول ما رأوه ،

يتجادلون دون كلل أو ملل حتى يتفقوا أو يتراضوا . لذا ، من الصعب على «سابو» أن ينسحب دون أن يروه حتى في ظل الشجر الكثيف ، وحتى لو استطاع أن يتسلل ، فحركاته التى تشبه حركات شخص يتخبط فى أرض سبخة ، ستلفت نظرهم ، فيرفع الكل رأسه ، ويشاهده وهو يغادر . ويتبادلون النظرات ، قبل أن ينحنوا على الأرض ثانية ، تتلاعب على كل وجه ابتسامة صغيرة ، أو بالأحرى كل واحد فاغر فمه قليلا لكن دون سوء نية ، وكل يتساءل إذا كان الآخرون يشعرون مثله ، ويعقد النية على سؤالهم فى اللقاء التالى . لكن وجه «سابو» وهو يسير متعثرا ، فى ظل الأشجار السامقة التى لا يعرف اسماءها ، وفى ضوء المرعى المتموج غير المنتظم ، وجه حزين كما هو دائما ، أو بالأحرى بلا تعبير ، وحين يتوقف ، فليس ذلك لأنه يفكر ، أو ليقترب أكثر من استغراقه فى حلمه ، بل ببساطة لأن الصوت الذى يأمره بالانطلاق قد توقف . ثم يحملق بعينيه الشاحبتين فى الأرض ، غافلا عن جمالها وفائدتها ، وعن الزهور الصغيرة البرية متعددة الألوان ، التى تبدو سعيدة وسط المحاصيل والأعشاب . لكن هذه الوقفات كانت قصيرة ، فهو مازال صغيرا ، وفجأة ينطلق ثانية فى تجواله ، عابرا من الضوء إلى الظل ، ومن الظل إلى الضوء ، بلا مبالاة .

★★★

حين أتوقف ، كما هو الحال الآن ، تبدأ الضجة ثانية ، عالية بغرابة ، ممن عليهم الدور ، بحيث يبدو أنى أسمع ثانية أصوات عهد صباى . ثم . فى سريرى ، فى ظلام الليالى العاصفة ، استطيع أن أميز بين صوت وآخر من الأصوات الخارجية . أوراق الشجر ، الأغصان ، تأوه الجذوع ، حتى الاعشاب ، وصوت البيت الذى يأوينى . كل شجرة لها صيحتها الخاصة ، ولا تتشابه شجرتان فى همسهما . وحين يكون الهواء ساكنا ، اسمع من

بعـيـد ، صليل البـوابات الحـديدية ، تدور على مـحـاورها ، والريح تندفـع عـبـر قـضبـانها ، لا يوجـد شئ ، ولا الرمل على الممرات ، لا يطلق صيـحتـه . الليـالى الساكنة ، الساكنة كـالقبـر كما يقـولون ، هـى ليـال عاصفـة بالنسبـة لى ، تعج بلهاث صاخب لا يحصى ، أمتع نفسى ، أثناء استلقائى ، بتحديده ، كنت أجنى متعة كبيرة فى صغرى مما يسمى سكون الليل ، والصوت الذى أفضله ، ليس له أية ميزة خاصة . إنه نباح الكلاب فى الليل ، فى أقبية البيوت الحقيرة فى الجبال حيث يعيش الحجارون مثل أجيال قبلهم . يصلنى الصوت حيث استلقى فى البيت الذى فى السهل ، متوحشا وناعما على مدى السمع ، ثم يعلوه الاجهاد ، وترد عليهم كلاب الوادى بنباحها وأنيابها وزبدها . ويأتى من التلال فرح آخر ، أعنى الأضواء الصغيرة المتناثرة التى تنبثق عاليا على المنحدرات عند هبوط الليل ، مختلطة ببقع بالكاد تكون أكثر لمعانا من السماء ، وأقل بريقا من النجوم التى يخمدها ضوء القمر الشاحب . أشياء مرتبطة بالسكون والظلام ، سرعان ما تتوقف .

وأنا أفـكر الآن بارتياح ، كيف كنت أقف أمام نافـذتى العـالية ، أسلم نفسى لها ، منتظرا نهايتها ليتم فرحى ، مجهدا نفسى للوصول إلى فرح انتهـاء الفرح ، لكن استمتاعى الآن أقل ، مع هذا العبث من أذنى اللـتين تنبثق منهمـا خصلتان متهورتان من شعر أصفر ، بفعل شمع الأذن ، والاهمال بلا شك . شـعر حتى أن شحمة الأذن اختفت تحته. لاحظت مؤخرا، دون عاطفة، أن سمعى قد تحسن. ليس معنى ذلك أنى كنت أصم جزئيا، لكن لمدة طويلة سمعت الأشياء بشكل مشوش. أعنى أن ضجيج العالم المتنوع فى ذاته، والذى كنت ذكيا فى تمييز كل صوت عن الآخر، يطن فى أذنى، ولمدة طويلة، بالضوضاء لكن كما لو إنها اندمجت بالتدريج فى ضجة مفردة، فكل ما أسمعه أزيز عال، مستمر. درجة الصوت التى أدركها بقيت، بلا شك، هى نفسها . وفقدت ببساطة المقدرة على

تفكيكها. ضجيج الطبيعة، والبشر، وضجيجي، اختلطت معا فى رطانة واحدة زاعقة. أنا على استعداد أن أرجع ذلك جزئيا، الى تعاسات أو بركات حلت بى، تعاسات أو بركات، ليس لدى وقت لانتقاء كلماتى. أنا فى عجلة من أمرى. ومع ذلك كلا. لست فى عجلة، قررت هذا المساء ألا أقول شيئا زائفا، أعنى لا شىء، غير محسوب ، يتركنى فى شك من نياتى الصادقة. ولأنه مساء، بل ليل. ومن أحلك الليالى التى أذكرها. فذاكرتى ضعيفة. ينزلق إصبعى الصغيرَ أمام قلمى الرصاص عبر الصفحة يحذرنى، يسقط على الحافة . منبئا بأن نهاية السطر قد اقتربت. لكن فى الاتجاه الآخر، أعنى بالطبع عموديا، لا يوجد ما يرشدنى . لم أرد الكتابة، لكن من الضرورى أن أتوافق معها فى النهاية كى أعرف إلى أين وصلت. أو إلى أين وصل. فى البداية لم أكتب، كنت أقول فقط، ثم نسيت ما قلت. قليل من الذاكرة مطلوب اذا أراد المرء أن يعيش حقيقة، خذ عائلته مثلا، لا أعرف عنها بالفعل أكثر مما قلت. وذلك لا يزعجنى، فهناك تسجيل لها فى مكان ما. إنها الطريقة الوحيدة ليظل تحت بصرى. ولكن هل بزغت الضرورة ذاتها فيما يتعلق بنفسى أم لم يبزغ؟ لذا فإنى أكتب عن ذاتى بالقلم نفسه وفى الكراسة عينها كما أكتب عنه. لأنى لم أعد أنا، وكان يجب أن أقول ذلك منذ زمن . فأنا شخص آخر بدأ حياته للتو. من الصواب أن يكون له هو أيضا تاريخ مسجل، مذكراته وتفكيره، ويكون قادرا على معرفة الخير من الشر . والشر من الاكثر شرا، يكبر مع الأيام الثابتة، ويموت فى يوم لا يتميز عن غيره من الأيام إلا بقصره. ذلك هو عذرى، ولابد أن هناك اعذارا أخرى، لا تقل امتيازا. نعم. إن الظلام حالك ولا أستطيع رؤية أى شىء. وأكاد «بالعافية» أرى زجاج النافذة، أو حتى الحائط الذى يشكل معها تناقضا حادا. بحيث تبدو مثل حافة لجة لا تدرك. اسمع صوت إصبعى ينزلق على الورق، وهو صوت يختلف عن صوت قلم الرصاص الذى يتبعه، وذلك ما يدهشنى، ويجعلنى أقول أن شيئا قد تغير منذ كنت ذلك الطفل لم

لا، أسمع أيضا، ها نحن أخيرا، صوت جوقة بعيدة لدرجة أنى لا أسمعها حين ينخفض صوتها. إنها أغنية أعرفها ، ولا أدرى كيف، حين خفت الصوت، ثم تلاشى تماما، سرى بداخلى ببطء، لكنه حين عاد ثانية لم يكن متناغما عما بداخلى، ورائى أو أمامى وليس معى، إنها جوقة مختلطة أو أنى خدعت بشدة. خدعني الأطفال، لدىّ إحساس عبثى بأن من يقودها إمراة ، وهم يغنون الأغنية ذاتها منذ فترة طويلة، لابد انهم يتدربون، إنها تنتمى للماضى البعيد، لقد تلفظت للمرة الأخيرة بصيحة النصر التى تنتهى بها الأغنية، أيمكن أن يكون عيد الفصح؟ وهكذا تعود فصول السنة، لو كان اسبوع عيد القيامة بالفعل، ألا تكون هذه الأغنية التى سمعتها لتوى، ولم تستقر بعد تماما بداخلى، تغنى على شرف ومجد من كان أول من يقوم من الموت؟ إليه الذى أنقذنى منذ عشرين قرنا؟ هل قلت «أول» صيحة النصر الأخيرة تضفى لونا على هذا المشهد.

★★★

أخشى أنى قد غفوت، أتحسس بعبث ولا أجد كراستى، القلم مازال بيدى، علىّ أن أنتظر بزوغ النهار، الله يعلم ماذا سأفعل حتى ذلك الحين.

لقد كتبت لتوى أخشى أنى قد غفوت. أمل ألا يكون ذلك تشويها كبيرا للحقيقة، وأضيف الآن الأسطر القليلة التالية قبل أن أغادر نفسى ثانية. أنا لا أرحل عن نفسى. بالتشوق ذاته الذى كان يلازمنى منذ أسبوع مثلا. فهذا الأمر يتواصل منذ سبعة أيام، مضى أسبوع منذ قلت سأكون ميتا أخيرا، خطأ، لم أقل ذلك وأقسم، بل كتبته. تبدو الجملة مألوفة وكأنى كتبتها فى مكان ما من قبل. أو رويتها كلمة كلمة، نعم سأكون ميتا قريبا .. إلخ، ذلك ما كتبته حين أدركت أنى لا أعى ما أقول . وبناء على ذلك وضعت خطة لأعيش، أن ألعب وأموت حيا. وهى تسير وفق كل خططى السابقة. أظن أن الفجر لن يتأخر فى البزوغ كما كنت أخشى، لكنى لا أخشى شيئا. لم أعد أخشى شيئا.

ذروة الصنيف فى متناول اليد، حين اتجهت ببصرى الى النافذة، رأيت لوح الزجاج يرتعش أمام شروق الشمس الشاحب . لوح زجاج غير عادى، يحضر لى الشروق والغروب. لقد سقطت الكراسة على الارض، استغرقت وقتا طويلا لأجدها، كانت تحت السرير، كم تحدث هذه الاشياء! كان علىّ اصطيادها، لم تمتلىء بالثقوب، لكنها كانت فى حالة سيئة، إنها كراسة سميكة، أمل أن تصحبنى حتى النهاية، من الآن فصاعدا ساكتب على وجهى الورقة. من أين أتت هذه الكراسة؟ لا أدرى . وجدتها فى اليوم الذى احتجتها فيه، ذلك كل ما فى الامر. أعرف جيدا أنى لا أملك كراسة، فتشت فى ممتلكاتى علّنى أجد واحدة، لم يخب ظنى ولم أندهش، اذا احتجت غدا لخطاب حب قديم، سأتبع الطريقة نفسها . كراسة مربعات، الصفحات الاولى مغطاة بالاصفار والرموز والرسوم التخطيطية مع جملة هنا وهناك . أظن أنها حسابات . توقفت فجأة قبل الأوان كما لو ان شيئا أحبط كاتبها. ربما علم الفلك أو التنجيم، لم أتمعن الامر. رسمت خطا. لا، لم أرسم خطأ، كتبت مباشرة بعد الحسابات ، سأموت قريبا وهكذا دون أن انتقل الى الصفحة البيضاء التالية . لن أطنب فى الحديث عن هذه الكراسة حين يكون الأمر أمر إبداع، أقول فقط إنها كراسة، قد أفقدها بين حين وآخر، أو نهائيا، لكن قلم الرصاص على العكس. فهو صديق قديم، كان معى مذ أحضرونى الى هنا، مخمس الاضلاع، قصير جدا ومبرى من الناحيتين، ماركة فينوس. أمل أن يصحبنى الى النهاية. قلت إنى لن أغادر نفسى الآن بالحيوية السابقة نفسها، ولابد أن ذلك من طبيعة الاشياء ، لذا فكل ما يخصنى لابد أن يكتب هنا، بما فيه عدم قدرتى على فهم النظام الذى أتمسك به، فلا دلالة لأى شىء داخلى. أو خارجى، وايمانى مركز على المظاهر، على الرغم من عبثيتها. ولن أخوض فى التفاصيل، أغص، واسقط، أنهض، وأغص، وأفترض وأنكر، وأؤكد . وأغرق، أغادر نفسى بسرور أقل، أنتظر الفجر، ماذا أفعل؟ لا أعرف ، ماذا علىّ أن أفعل؟ أرقب

النافذة، أطلق العنان لآلامى، لعجزى، يبدو لى، لمدة ثانية إنى سأحظى بزيارة شخص ما.

★★★

تقترب إجازات الصيف من نهايتها، اللحظة الحاسمة فى متناول اليد، حيث يكرم المرء أو يهان، قال السيد «سابوسكات»: لقد تدرب بشكل دقيق، وصلت السيدة «سابوسكات» ، التى ترتفع درجة ورعها فى الازمات، من أجل نجاحه ، راكعة قرب سريرها فى ثوب نومها، داعية بصمت، لأن زوجها لن يوافق على ما تقوله، يا الهى. إمنحه النجاح.. إمنحه النجاح «خليه يعدى».

كان هناك عقبات أخرى بعد هذه العقبة، كل سنة، عدة مرات فى السنة، لكن بدا لآل «سابوسكات» أن هذه العقبات أقل رعبا من هذه العقبة الأولى. التى كانت ستمنعهم أو تعطيهم الحق فى القول: انه يدرس الطب، أو هو يذاكر من أجل مهنة المحاماة، فهما يشعران بأنه أمر طبيعى بشكل أو بآخر، اذا كرس شاب غير ذكى جهده لاحدى هذه المهن. أن ينجح عاجلا أو آجلا.

ذات يوم اشترى السيد «سابوسكات» قلما من الحبر بسعر مخفض، من نوع «بيرد». قال: سأعطيه له صباح يوم الامتحان. أخرج القلم من علبته وأراه لزوجته. صاحت: دعه فى علبته. ومدت يدها لتتناوله، كان مختفيا وسط النشرة المطوية التى فيها طريقة الاستعمال. فرد السيد «سابوسكات» حواف الورقة، ورفع العلبة لزوجته لتراها، وبدلا من أن تنظر الى القلم، نظرت إليه. فنطق بالسعر. قالت: أليس من الافضل أن نعطيه له فى اليوم السابق للامتحان حتى يعتاد على الكتابة به؟ قال: أنت على حق، لم أفكر بذلك. قالت : أو حتى قبل يومين حتى يتاح له تغيير السن اذا كان لا يناسبه . انه ماركة بيرد، يزين غطاءه منقار أصفر فاغرا فاه كأنه يغنى. أعاد السيد «سابوسكات» وضع الغطاء على القلم، ولف العلبة بالورق بأيد خبيرة وأحاطها بحلقة مطاطية صغيرة، لم يكن سعيدا.

قال : إنه سن متوسط الجودة لكنه سيناسبه بالتأكيد.

وتجددت هذه المحادثة فى اليوم التالى.

قال السيد «سابوسكات» : أليس من الافضل أن نعيره القلم ونقول له انه سيصبح ملكه اذا نجح؟

قـالت الزوجـة: إذن يجب أن نعـيـره له على الفـور.. وإلا لا مـعنى لما نـعـمله. اعترض الزوج، ثم بعد لحظة قدم اعتراضا آخر. كان الاعتراض الاول أن الولد اذا أخذ القلم الآن فقد يكسره أو يفقده قبل الامتحان. والاعتراض الثانى إنه لو تسلم القلم على الفـور، ومع الافـتـراض إنه لن يكسـره أو يفـقـده، فـسـيكون لديه الوقت الكافى ليعتاد عليه. وبمقارنته بأقلام زملائه سيعرف عيوبه بحيث لن يغريه امتلاكه.

قالت الزوجة: لم أكن أعرف انه قلم قليل القيمة.

وضـع الزوج يده على المائدة، وجلس يحملق فيها لفترة، ثم رمى فوطته وغادر الغرفة، صاحت الزوجة: ادريان.. تعال اكمل حلوياتك.

وأصغت الى خطواته على ممر الحديقة، واضحة خافتة. واضحة خافتة.

★★★

آل لا مبرت..

ذات يوم وصل «سابو» الى المزرعة مبكرا عن المعتـاد . لكن هل نعرف الوقت المعتـاد الذى يصل فـيه؟ ظلال تبدو طويلة ثم تتـلاشى، دهـش، حين رأى عن بعد، رأس الاب الكبير الاحمر والابيض، وسط القش، وجسـده داخل حفرة، كانت حفرة للبغل الذى مـات أثناء الليل. خـرج «إدموند» من المنزل يمسح فمه، وانضم لوالده. خرج «لامبرت» من الحفرة ونزل الولد فيها . حين إقترب «سابو» رأى جثة البغل السـوداء. ووضح له آنذاك كل شىء. البغل مسـتلق على جانبـه كـمـا هـو مـتـوقع،

القدمان الأماميتان متصلبتان وممتدتان على استقامتهما، والقدمان الخلفيتان مضمومتان للبطن، الفكان المفتوحان والشفتان الملتويتان، والاسنان الكبيرة الضخمة، والعينان الناتئتان، كل ذلك يكون رأسا ميتا مثيرا. ناول «إدموند» أباه، المعول والمجرفة، وخرج من الحفرة.. سحبا معا جثة البغل الى حافة الحفرة وطرحاه فيها على ظهره. كانت الرجلان الاماميتان تشيران الى السماء، بارزتين فوق سطح الارض. ضربها لامبرت العجوز بالمجرفة، وناولها لابنه، واتجه الى البيت. بدأ «إدموند» يملأ الحفرة، ووقف «سابو» يراقبه مسربلا بهدوء عظيم. هدوء عظيم مبالغة. شعر بتحسن. فنهاية حياة ما منشطة للحياة. توقف الابن ليستريح مستندا على المجرفة مبتسما، هناك فتحة وردية واسعة بين أسنانه. جلس لامبرت الكبير قرب النافذة، يدخن ويشرب مراقبا ابنه. جلس «سابو» أمامه. واضعا يده على المائدة ورأسه فوقها. ثم دس يده الأخرى بين رأسه ويده وظل ساكنا كالرخام، بدأ لويس (الاب) يتكلم. روحه المعنوية عالية.

مات البغل فى رأيه من كبر السن.. اشتراه منذ سنتين، كان صاحبه فى طريقه لذبحه حتى لا يتألم. بعد الصفقة تنبأ له بأن البغل سيقع ميتا عند أول جرة للمحراث. لكن لامبرت كان خبيرا بالبغال، فعين البغل هى التى تنبىء والباقى لايهم. وهكذا نظر فى عين البغل مليا عند بوابة المسلخ، ورأى إنه يمكنه الاستمرار فى الخدمة. بادله البغل النظرة، وتبدل مكان الصفقة من الطريق المؤدى الى المسلخ، الى البوابة فالفناء، بعد قليل سيدخل الجزار نفسه فى المناقشة، قال: ان نظرته كانت كصلاة تدعونى أن آخذه. مغطاة بالألم، فى حالة البغال. لا يجب أن يدع نفسه يتأثر بآلام السن العجوز. قال شخص ما: لقد مشى عشرة أميال حتى هنا ولا يمكنك أن تصل به الى البيت، سيموت فى الطريق. قال لامبرت: اعتقد أنى سأحصل منه على ستة أشهر من العمل، وحصلت منه على سنتين وظل طوال الوقت يروى هذه القصة، محتفظا بعينيه على ابنه الذى يدفن البغل.

سابو وهو والمائدة بينهما فى الظلمة. واحد يتكلم والآخر يصغى، واحد بعيد عما يقول، والآخر بعيد عما يسمع، والاثنان بعيدان عن بعضهما. كومة التراب تتناقص.

الارض تلمع بغرابة فى ضوء الغروب المتلاشى، تلمع فى مواقع كأنها تصدر نيرانها الخاصة فى الضوء المنسحب. كان ادموند يتوقف ليستريح مستندا على الجاروف ناظرا حوله. قال الاب: اشترى حيواناتى من المذبح. انظر الى ذلك المتسكع.

خرج وبدأ العمل مع ابنه. عملا معا فترة، كل منهما غافلا عن الآخر. ثم ألقى الولد مجرفته، وتحرك بعيدا ببطء تاركا العمل ليستريح ، فى حركة واحدة متصلة كأنها غير صادرة عنه . اختفى البغل، لن يرى وجه الأرض التى مشى فوقها حياته كلها . يعمل أمام المحراث أو عربة الاثقال، وسيتمكن لامبرت الكبير من حرث الارض حين يأتى ببغل آخر أو بحصان عجوز أو ثور كبير السن يشتريه من بائع الحيوانات الكبيرة ، مدركا أن شفرة المحراث لن تخرج اللحم العفن، أو تتأثر بالعظام. فهو يعرف ما يؤول إليه الميت والمدفون فى حفرة غير عميقة.. على عكس ما قد يتوقع المرء، يصعد الى السطح بدلا من الغوص فيها، ولقد راعى ذلك عند حفر الحفرة.

مر «إدموند» بأمه فى صمت، كانت فى طريقها الى إحدى الجارات لاقتراض كيلة من العدس لعشائهم. وفكرت هل الكيلة الحديدية الانيقة التى تكيل بها مضبوطة!.

مرت بزوجها بسرعة دون نظرة ، وليس هناك ما يبرر إنه قد رآها أيضا.

أضاءت المصباح وهو فى مكانه المعتاد على رف المدفأة قرب المنبه والصليب المعلق بمسمار. المنبه، وهو الأوطأ، كان لابد أن يكون فى المنتصف ، لكن المصباح والصليب لايمكن تغيير مكانهما بسبب المسمار المعلق به الصليب.

رفعت الفتيل. وأعادت الكرة الزجاجية المصفرة التى يشوهها ثقب كبير. رأت «سابو» وظنته فى البداية ابنتها، واتجه تفكيرها الى الغائبة. وضعت المصباح على المائدة ، وغاب عنها العالم الخارجى. جلست وأفرغت العدس أمامها وبدأت تنقيته. سرعان ما أصبح هناك كومان، كوم كبير يصغر، وكوم صغير يكبر، فجأة، وبحركة غاضبة، خلطت الكومين معا. مضيعة فى ثانية جهد عدة دقائق. خرجت وعادت بطاسة قائلة: لن يقتلهم. وبكف يدها أزاحت العدس حتى حافة المائدة ، ثم فى الطاسة، كما لو أن كل ما يهم ألا يقتلوا . ولأنها خرقاء، وبمثل هذه العصبية والعجلة فإن كمية لا بأس بها من العدس وقعت على الأرض. أخذت المصباح وخرجت لتحضر الخشب أو ربما قطعة من دهن الخنزير . أصبح المطبخ مظلما، وبدت الظلمة فى الخارج أقل. عينا «سابو» فى اتجاه النافذة ، كان قادرا على تمييز بعض الاشكال، من بينها لامبرت الكبير يسوى الارض. أن يتوقف المرء فى منتصف عمل ممل، وقد يكون مثمرا، أمر يمكن لسابو أن يفهمه، فمعظم الاعمال كذلك والطريقة الوحيدة لانهائها هى تركها. قد تظل تنقى العدس طوال الليل ولا تحقق هدفها، أى تنقيته من كل الشوائب، كان بإمكانها أن تتوقف قائلة: لقد بذلت كل ما فى وسعى، لكنها لم تبذل كل ما فى وسعها، ولكن تأتى لحظة يتوقف فيها المرء عن العمل ، لأن ذلك أحكم شىء يمكن عمله، إحباط، لكن لا يصل الأمر الى افساد ما تم عمله. ماذا لو كان هدفها ليس تخليص العدس مما ليس هو عدس ، بل من جزء كبير منه؟ لا أدرى . هناك أعمال يمكن للمرء أن يقول عنها بصدق انها قد انهيت، مع اننى لا أرى أيا من تلك الاعمال.

عادت تحمل المصباح عاليا، مائلا الى أحد الجوانب حتى لا يربكها، وتحمل فى يدها الاخرى أرنبا من رجليه الخلفيتين. كان البغل أسود أما الارنب فأبيض. كان ميتا بالفعل. هناك أرانب تموت قبل أن تذبح بمجرد الخوف. تموت أثناء اخراجها من خُمِّها. غالبا من آذانها. وخلال وضعها لتلقى الضربة سواء على

مؤخر العنق أو أى جزء آخر. فى معظم الاوقات تذبح جثة دون أن تدرى، فأنت قد رأيت الارنب حيا وفى حالة جيدة يقضم أوراق الشجر خلف شبك الخم، وتهنىء نفسك بأنك نجحت من أول ضربة ولم تسبب له آلاما غير ضرورية، بينما بذلت كل ذلك الجهد عبثا. غالبا يحدث هذا فى الليل، حيث يكون الخوف أعظم. الدجاج نوع من الأحياء الاكثر عنادا، يظل حيا ورأسه مذبوحا، وعليك أن تزيد فى القطع قبل أن ينتهى. الحمام أيضا، يناضل أحيانا قبل أن يستسلم للذبح. كانت السيدة لامبرت تتنفس بصعوبة، صاحت: أيها الشيطان الصغير. لكن «سابو» كان قد اصبح بعيدا، يطوح بيديه وسط أعشاب المرعى العالية المتموجة. بعد قليل دخل لامبرت الكبير وابنه المطبخ وقد جذبتهما الرائحة الزكية، جلسا الى المائدة وجها لوجه دون أن تلتقى عيونهما . ينتظران.

اتجهت الام نحو الباب ونادت «ليزى» عدة مرات، ثم عادت الى عملها. لقد رأت القمر. بعد لحظات من الصمت، أعلن لامبرت بأنه سيقتل الخنزير الابيض غدا. لم تكن هذه هى الكلمات التى استخدمها بالطبع، لكن ذلك هو المعنى . لم توافقه زوجته ولا ابنه . الاولى لأنها تفضل ان يذبح الخنزير الاسود، والثانى لاعتراضه على قتل الخنافيص فى مرحلة مبكرة من نموها، فهما سواء عنده. أمرهما لامبرت الكبير بالسكوت واحضار الحقيبة التى تحتوى على السكاكين الثلاث، كل ما عليه عمله أن يمسحها من الشحم ويسنها قليلا بعضها ببعض.

اتجهت السيدة لامبرت الى الباب ثانية، أنصتت. ثم نادت على ابنتها، أجابها القطيع من بعيد. قالت: إنها قادمة. ومر وقت طويل قبل أن تحضر حين انتهوا من الوجبة، صعد «إدموند» على سريره كى يمارس العادة السرية فى هدوء وراحة قبل أن تنضم اليه اخته، فهما يشتركان فى غرفة واحدة.

ليس لانه محتشم أو لانها محتشمة، فبيتهما لا قيود فيه ولا دماثة فى التعامل . صعد على سريره دون سبب. كان يسعده لو نام مع أخته، بل أن الاب

كان يسعده أن يفعل ذلك. لكن الوقت قد مضى، وكان شيء ما يمنعه، كانت صغيرة ولم يبد عليها انها على استعداد . الزنا بالمحارم يحوّم فى الجو، السيدة لامبرت هى الوحيدة فى البيت التى ليست لديها رغبة فى أن تنام مع أحد، وتقابل ذلك بلا مبالاة، خرجت. وجلس لامبرت يراقب ابنته التى قرفصت أمام الفرن، وبدأت تأكل بقايا الأرنب من القدر بملعقة.

من الصعب أن تراقب بثبات . مدة طويلة، من تعرفه حتى لو صممت على ذلك فجأة رأى لامبرت ابنته فى مكان آخر منشغلة، ليس فى رفع الملعقة من القدر الى فمها، ولكن بشىء آخر، مع إنه يقسم بأنه لم يرفع عينيه عنها. قال: غدا سنذبح الخنزير الابيض. يمكنك أن تمسكيه اذا أردت . لكن حين رآها حزينة والدموع تبلل خديها اتجه نحوها.

★★★

يا له من ملل.

لو تحدثت عن الحجر، فهو الشيء نفسه. آل لامبرت، آل لامبرت، هل يهمنى أمرهم؟ ليس على وجه الخصوص . لكن حين أكون معهم يضيع الآخر منى. ما أخبار خطتى؟ كان لدى خطط منذ زمن غير بعيد. ربما مازال أمامى عشر سنوات. سأحاول أن استمر معهم فترة أطول، أفكارى فى ناحية أخرى. لا استطيع البقاء هنا، اسمع نفسى تتحدث، بعيدا عن عقلى البعيد، عن آل لامبرت . عن ذاتى ، وعقلى يتجول سائحا وسط خرائبه.

★★★

السيدة لامبرت، وقد أضحت وحيدة فى المطبخ، جلست قرب النافذة، وخفضت فتيلة المصباح كما تفعل عادة قبل إطفائها. فهى لا تحب أن تطفىء مصباحا ساخنا. حيث ظنت أن الزجاجة قد بردت. نهضت ونفخت فيها. وقفت برهة مترددة، انحنت الى الأمام مستندة على المائدة قبل أن تجلس ثانية.

يوم عملها قد انتهى، وبزغ يوم جديد على أعمال أخرى داخلها، القدرة على الحياة وآلامها المستمرة، تتحملها متحركة أو جالسة أفضل مما لو كانت مستلقية في السرير، ومن بئر هذا الارهاق المتواصل تخرج تنهيدتها الطويلة ، في نهار سرعان ما يلحقه ليل، وليل يتبعه نهار، نهار وليل بشكل مرعب، تنتظر في المطبخ، تجلس باستقامة على كرسي، أو تنحني على المائدة في غفوة قصيرة، راحة صغيرة ، لكنها أفضل ما تنالها في الفراش. في معظم الأوقات، تقف ثم تدور في الغرفة أو خارجها .

حول البيت القديم الخرب، خمس او ست سنوات لا أكثر، والامور تسير بهذا الشكل، قالت لنفسها بحزن طفيف أن لديها مرضا نسائياً. الليل يبدو أقل ليلا في المطبخ وهو يختلط مع محن كل يوم، النهار أقل رعبا. يساعدها . حين تسوء الامور تتشبث بأصابعها بالمائدة القديمة التي ستتجمع حولها العائلة قريبا، منتظرة خدمتها، وتجهيز القدور والطاسات التي عاشت معهم العمر.

فتحت الباب وتطلعت الى الخارج . غاب القمر والنجوم تشع ، وقفت تحدق فيها، كان هذا المشهد يعزيها ذات يوم، ذهبت الى البئر وأمسكت بالسلسلة . الدلو في قاع البئر، آلة الرفع مقفلة، راحت أصابعها تجول حول الحلقات المتعرجة كان عقلها معصرة لأسئلة بلا شكل، تختلط وتمتزج خارجة بعرج، بعضها له علاقة بإبنتها . ذلك هو القلق الاقل. هي الآن نائمة في سريرها. تسمع والدتها تتحرك . كانت على وشك أن تنهض وتنزل لها. في الغد أو بعد الغد ستخبرها بما قاله «سابو» ، بأنه سيذهب ولا يرجع . ثم وكما يفعل الناس حين يموت شخص ما، حتى لو كان غير مهم، يسترجعون الذكريات عنه. ويساعد أحدهم الآخر ليتفقوا حوله وكلنا يعرف ذلك اللهب القليل وما يثيره من شرر في الظلال المتوحشة. والاتفاق يأتي مع النسيان، بعد ذلك بقليل.

★★★

ملل قاتل. استشرت ذات يوم أحد الموسويين في موضوع الرغبة، ذلك حين كنت أبحث عن شخص أثق به ويثق بي. وفتحت عيني على اتساعهما بحيث إن كثيرا من المرشحين لتلك الثقة يستطيعون سبر أغوارها وكل ما تشعه حول ما لم نقله. كان وجهانا قريبين حتى أن شعرت بلفح انفاسه ورذاذ لعابه، وبلاشك شعر هو أيضا بذلك. أراه الآن ساكنا بعد ما مرت نوبة الضحك، ماسحا عينيه وفمه، وأنا بعينين منكسرتين، أتألم من سروالي المبتل، وبركة البول الصغيرة عند قدمي. يمكن أن أبوح باسمه الآن بعد ما لم أعد ذا فائدة بالنسبة له: جاكسون. كنت حزينا لأنه لايملك قطة أو جروا او حتى كلب عجوز، كل ما كان لديه ليقدمه، على طريقة الرفاق الخرس، ببغاء وردى رمادي، علمه أن يقول : «طز في الفكر». واستطاع أن يتقن هذه الكلمات جيدا، لكن كثرة التعليمات جعلت كل ما تسمعه سلسلة من الشقشقات مما أزعج «جاكسون»، واستمر في الالحاح عليه ليعيد ثانية. فيطير الببغاء في غضب ويتراجع الى أحد أركان القفص، قفص جميل فيه كل وسائل الراحة. أرجوحة ومجثم، أوان وخدود للطعام، سلالم وعظام سمك الحبار. قفص مزدحم، لو كنت مكان الطائر لشعرت بالضيق. كان جاكسون يدعوني مارينو «ضأن القوقاز»، لا أدري لماذا، ربما بسبب شكلي. لم استطع الامتناع عن التفكير بأن فكرة القطيع المتجول مناسبة له اكثر مني. علاقتي به كانت قصيرة، كنت سأتخذه صديقا، لكن لسوء الحظ وجدني باعثا على الغثيان، كما حدث مع جونسون وويلسون ونيكلسون وواتسون، كلهم ابناء عاهرات. وحاولت لفترة، أن أقيم علاقة مع نفس شبيهة، ممن لديهم عاهة أو نقص، من الحمر أو الصفر أو ذوى اللون البني وما شابه، ولو كانت ضربة الطاعون غير مميتة لتطفلت على من يصابون به. اسير بجانب الواحد منهم، أرميه بنظرة غرامية، أرمقه بخبث وشبق ، راغبا وقلبي ينبض . حتى مع المجانين فشلت.

ذلك ما كان الأمر آنذاك، لكن المشكلة كيف هو الأمر معي الآن؟

في صغري كان الكبار يبعثون في نفسي التساؤل والرهبة. وما يدهشني الآن هم الاطفال الذين يبكون ويصرخون . امتلأ بهم البيت أخيرا.

يا له من ملل! وأنا الذي ظننت اني طردته من تفكيري، لو استطعت استخدام جسدي لألقيت به من النافذة. معرفتي بعجزي هي التي تشجعني على مثل هذا التفكير. كل شيء مرتبط ببعضه، أنا في سلاسل . لسوء الحظ لا أعرف في أي دور أعيش. ربما الدور فوق الأرضي. لا شيء استرشد به حول هذا الموضوع . من خبط الابواب أو صوت الاقدام على السلالم او الضجة في الشارع. كل ما اعرفه أن هناك أحياء فوقي وتحتي، وبالتالي لست في الطابق الارضي على الاقل. كما انني لا أرى السماء أحيانا، لكن من خلال نافذتي أشاهد نوافذ تواجهني بوضوح، وذلك لايثبت أي شيء، ولا أرغب في أن أثبت شيئا ، أو هكذا أقول. ربما اسكن قبوا، وما اعتبره شارعا ما هو في الحقيقة سوى فندق كبير تطل عليه مجموعة من الأقبية، لكن ماذا عن الاصوات التي تتصاعد من اسفل، والخطوات التي أسمعها تصعد قادمة تجاهي؟ ربما هناك أقبية اكثر عمقا من قبوي، ولم لا؟ على أية حال يظل السؤال قائما: في أي دور أعيش. لن اكسب شيئا بقولي إني أعيش في البدروم حتى لو كان هناك طبقات منها الواحد فوق الآخر. لكن الاصوات والخطوات هل هي حقيقية؟ لا برهان لدي. والنتيجة انني فريسة لهلوسة بسيطة خالصة، وهي ما أتردد في قبوله. اعتقد بأمانة ان في هذا المنزل اناسا يأتون ويذهبون ، وحتى يتحدثون، وأعدادا كبيرة من الاطفال الجهلاء، جاءوا حديثا، ينقلهم آباؤهم من مكان لاخر باستمرار، حتى لا تتكون عندهم عادة عدم الحركة، حتى اليوم الذي يتحركون به دون مساعدة. ومع أخذ كل هذا في الاعتبار، فمن الصعب أن أحدد واثقا موقعهم مَن موقعي. وحين يقال ويفعل كل شيء، فلا يوجد شبيه لصوت خطوة تصعد سوى خطوة تهبط او تسير مراوحة في مكانها، وذلك بالنسبة لشخص لا يجهل موقعه فقط وما ينتظره

عن طريق الأصوات ، بل فى الوقت ذاته أكثر من نصف أطرش فى معظم الوقت. هناك ، بالطبع ، إمكانية أخرى لا تفوتنى ، مع أنها لو ثبتت ، ستكون خيبة أمل كبيرة . وهى أننى ميت بالفعل وإن الامر يسير بشكل ما كما لو لم أكن ميتا . ربما مت أثناء وجودى فى الغابة أو قبل ذلك ، ولسبب ما لا أستطيع استرجاع كل الصعوبات التى مرت بى ، بوضوح ، إلا بارتباطها بشكل ما بالاحساس بأن متاعبى على وشك الانتهاء تقريباً ، وبلا سبب ، لكن حسن إدراكى يخبرنى بأنى لم أتوقف بعد عن التنفس ، وفى ضوء هذا الموقف ، يستدعى الأمر عدة اعتبارات ، لها علاقة مثلا بمقتنياتى ، نظام تغذيتى وإخراجى، الزوجان عبر الشارع ، والسماء المتغيرة وهكذا . بينما فى الواقع ، قد لايكون ذلك سوى الدود الذى ينغل بداخلى ، خذ مثلا الضوء الذى يحكم هذا الوكر، أقل صفة له ، حقيقة أقل ما يقال عنه إنه غريب الاطوار . أستمتع بنوع من الليل والنهار ، باعتراف الجميع ، مع أن الغالب ظلام كالقطران ، ولكن بطريقة تختلف عما أتخيل إنى اعتدته قبل أن أكون هنا . مثلا ، ولا يوجد ما يعادل ضرب الامثال ، كنت ذات مرة فى ظلام حالك أنتظر بفروغ صبر بزوغ الفجر ، أحتاح الضوء لرؤية أشياء صغيرة معينة من الصعب رؤيتها فى الظلام ، وبالفعل، رويدا رويدا أنزاحت الظلمة والتقطت بعصاى ما أردته . لكن الضوء بدلا من أن يكون ضوء الفجر ، تحول فى وقت قصير ليكون ضوء الشفق ، والشمس بدل أن تصعد عاليا فى السماء كما كنت أتوقع بثقة ، غربت بهدوء ، وهبط الليل الذى احتفلت بذهابه لتوى ، فالنهار ينتهى عند بزوغ الفجر ، قد يعود ذلك إلى احساس قلبى ، أعنى لا أستطيع أن أصرح بأنى قد جربت ذلك ، مع أنى توسلت مرات ومرات طوال النهار لليل أن يهبط ، وطوال الليل ،للنهار أن يبزغ ، بكل قوتى الضعيفة ، ولكن قبل أن أترك هذا الموضوع ، وأدخل فى آخر ، أشعر من واجبى أن أقول إنه اطلاقا لم يكن هناك نور بمعنى الكلمة فى هذا المكان . الضوء هناك فى الخارج حيث يتلألأ الهواء ،

ويلمع الحائط الجرانيتى ، عبر الشارع ، بكل الميكا التى عليه ، الضوء فى مواجهة نافذتى ، لكنه لا يدخلها، هنا.الكل يستحم ، لا أقول فى الظل ، أو نصف ظل ، بل بنوع من الضوء الرصاصى الذى ليس له ظل ، لذا من الصعب أن تحدد من أى اتجاه يأتى ، فكأنه يأتى من كل الاتجاهات ، فى أن واحد وبشدة متساوية ، أنا مقتنع ، مثلا ، انه فى اللحظة الحاضرة ، درجة الاضاءة تحت سريرى تعادل درجتها تحت سقف غرفتى ، قد لا يعنى هذا الكثير ، لكنى لا أحتاج الى قول المزيد . تلك الكمية من الضوء ، على الرغم من بساطتها ، فلا لون حقيقى فى هذا المكان إلا إذا اعتبرت هذا النوع من اللمعان الرمادى لونا ! قد يتكلم المرء عن الرمادى، وشخصيا ليس لى اعتراض على ذلك . على أية حال فاللون هنا يقع بين الرمادى والاسود ، ينتشر بتفاوت حسب الوقت فى اليوم ربما ، لكن لا يعتمد ذلك على الوقت دائما . أنا نفسى رمادى جدا بالطريقة ذاتها التى عليها ملاءاتى مثلا . ليلى ليس هو ليل السماء ، ستقول إن الاسود هو الأسود فى كل العالم . كيف إذن إن مكانى الصغير لا تزوره الاضواء التى أراها تشع بعيدا ؟ وكيف أن القمر وقابيل ينحنى تحت حمله فوق سطحه ، لم يلق بالضوء قط على وجهى ؟ باختصار ، هناك ضوء العالم الخارجى ، عالم أولئك الذين يعرفون أن الشمس والقمر يبزغان فى ساعة محددة ، وأن السحب متوقعة دائما ، لكنها ، عاجلا أو آجلا تنجلى ، وآخرون مغمورون تحت السطح ويستريحون لذلك ، ثم أنا . ولكنى عندى بدائلى ، لن أنكرها ، بشفقها وفجرها .، ذلك ما أقوله لأنى لابد أن عشت يوما ما هناك فى الخارج ، فلا مهرب ، حين أفحص السقف والحوائط ، لا أرى إمكانية حصولى على ضوء صناعى مثل الزوجان عبر الشارع ، إلا اذا أعطانى شخص ما لمبة او بطارية ، ولا أعرف إذا كان الهواء هنا من النوع الذى يمنح ذاته لكوميديا الاشتعال . يجب أن أبحث فى ممتلكاتى عن كبريت وأرى إذا كان يشتعل . ثم الضوضاء والصرخات والخطوات

والابواب والتمتمات التى تتوقف لأيام متتالية ، تلك أيامها ، ثم الصمت ، وعارفا ما أعرفه ، يمكننى القول إنه لا غبار عليه . ثم بهدوء !، يعود مكانى الصغير للنبض ثانية . هل يحدث ذلك داخل رأسى فقط ؟ يبدو لى إننى داخل رأسى أحياناً ، وإن هذه الثمانية ، لا ، الستة أسطح التى تحيطنى ما هى إلا عظام صلدة ، وأن الرأس لى ، استنتاج ، لا مستحيل . فهناك هواء يحوم فى الجو ، لابد من قول ذلك ، وحين يسكن كل شىء، اسمعه يخبط بالجدران وتخبطه الجدران ، وفى وسط المكان هناك موجات أخرى وانقضاضات أخرى ، تتجمع وتنفجر ، وأفترض إنها الصوت الخافت لموجة هوائى، أو إنها عاصفة مفاجئة مماثلة لما هو فى الخارج ، تعصف وتغطى على أصوات الاطفال والعشاق والموتى ، ولسذاجتى أظن إنها تتوقف بينما هىَ فى الواقع لم تتوقف . من الصعب على المرء أن يقرر . واتساءل هل فى الجمجمة فراغ ؟ إذا أغلقت عينى ، أغلقتهما حقيقة ، فالبعض لا يستطيع ، على قدر طاقتى ، فهناك حدود لعجزى ، أرى السرير يرتفع فى الهواء ويضرب فى الأرض كريشة فى دوامة ريح ، وأنا عليه . لحسن الحظ ليس الأمر مسألة جنون ، لكن الروح هى التى تحجب ، تدور فى قفصها ، يقظة ، قلقة ، منكرة عبثا .، كما لو كانت فى مشكاة فى الليل دون مأوى أو وسيلة انتقال ، أو مادة أو فهم - نعم ، كان لدى أوقاتى الماضية القصيرة ، وهى . ————

***

يا لسوء الحظ ، لابد أن قلم الرصاص قد أنزلق من بين أصابعى . لم أستعده إلا منذ ثمانى وأربعين ساعة ، بعد مجهود متقطع . ما ينقص عصاى طرف ملتو ماص كخرطوم الخنزير البرى الليلى ، فسأفقد قلمى مرارا ، وذلك الطرف سيساعدنى جيدا ، وسأغدو أكثر مرحا . قضيت يومين لا ينسيان ، لم أعرف فيهما شيئا ، فات الوقت أو إنه مبكر جدا ، نسيت ، عدا إنهم أحضروا لى الحل والنتيجة لكل العمل المؤسف ، أعنى عمل مالون (وهو الاسم الذى أحمله الآن)

وعمل الآخر ، أما الباقى فليس من اختصاصى . وهو شىء لا يحكى ، مثل إزالة كومين صغيرين من الرمل الناعم الممتاز، أو الغبار أو الرماد ، بحجمين غير متساويين وينقصان معا، كأن الأمر يتم بتناسب ، هل يعنى لك ذلك شيئا ، تاركين وراءهما كل حسب فائدته ، فضيلة الاختفاء . وبينما كان هذا الأمر يتم ، كنت أكافح ، علي نوبات كى أستعيد قلمى . إنه صغير ، ماركة فينوس ، مازال أخضر اللون بلا شك ، له خمس أو ست ضلوع ، مبرى من الناحيتين ، قصير جدا ، بالكاد هناك مكان بين الطرفين لتتجمع أصابعى فى مسكة صغيرة . استخدم الطرفين بالتناوب ، وأمصهما باستمرار ، أحب ذلك . حين ينتهى الرصاص أبريه بأظافرى الطويلة الحادة الصفراء الهشة أيضا بسبب نقص الكالسيوم والفوسفور ، وهكذا يتناقص القلم قليلا قليلا ، ويقترب اليوم سريعا ، حين لا يبقى منه شىء سوى كسرة يصعب الامساك بها . لذا أكتب بخفة قدر استطاعتى ، لكن الرصاص صلب ولا يترك أثرا إذا كتبت بخفة . وفاضلت بين رصاص صلب ، لا يترك أثرا فى الكراسة اذا لم تضغط عليه ، وبين رصاص طرى يسود الصفحة تقريبا دون أن تمسه ، ما هو الاختلاف الممكن بينهما من وجهة نظر الاستمرارية ؟ كان لى أوقاتى القصيرة الطيبة ، الغريب أن لدى قلم رصاص آخر ، مصنوع فى فرنسا ، طويل اسطوانى الشكل لم يكتب به بعد ، إنه فى مكان ما فى السرير معى ، فلا يوجد ما أقلق عليه من هذه الناحية . ومع ذلك أقلق ، فالآن ، وأنا أبحث عن قلمى ، اكتشفت شيئا غريبا ، الأرضية تبيض ، خبطتها عدة ضربات بالعصا ، كان الصوت الصادر عنها حادا وفاتر ، صوت غير معتاد فى الواقع ، تفحصت كل الجوانب حولى وفوقى ببعض الارتعاش ، وطوال الوقت كان الرمل ينساب ، قلت لنفسى : ضاع الى الأبد ، أقصد القلم بالطبع ، رأيت كل المظاهر الخارجية ، هل أقول والداخلية ، الأفقية والرأسية – مع أنها لا تبدو رأسية من موقعى – أصبحت بيضاء بشكل واضح منذ فحصى

لها آخر مرة التى لا أعرف متى كانت . وهذا من أكثر الاشياء غرابة ، لأنه من طبيعة الاشياء كما أعتقد أن تسود مع مرور الزمن ، ماعدا بقايا موتنا وبعض الاشياء من أجسامنا التى تفقد لونها الطبيعى وينحسر الدم عنها على المدى الطويل . هل يعنى ذلك أن هناك نوراً أكثر هنا ؟ لا أعتقد ، فإنه اللون الرمادى ذاته الذى يشع أحيانا ثم يغدو دامسا معتما ، ربما كثيفا هى الكلمة ، حتى تغدو كل الاشياء غارقة فى الظلام ، عدا النافذة التى تبدو ، حسب القول ،كالسرة فى وسط البطن ، وأقول لنفسى حين تغوص هى أيضا فى الظلام بأنى قد أتوه عن مكانى . لا . الذى أعنيه أنى حين أفتح عينى علي اتساعهما ، أرى فى حدود هذا الظلام المقلق ، بريقا ووميضا واهنا كما لو إنه لعظام ، وهو ليس كذلك ، حسب معرفتى ، فأذكر بوضوح الورق الملصق على الحوائط ، أو بالأحرى الاجزاء التى مازالت مثبتة هناك ، مغطاة بأشكال ملتوية من الورد والبنفسج وزهور أخرى فى فوضى ، حتى يبدو لى أنى لم أر هذه الكثرة منها طوال حياتى ،بمثل هذا الجمال . كل ذلك قد أختفى الآن ، اختفى تماماً . وإذا لم يكن هناك زهور على السقف ، فقد كان هناك شىء آخر ، كوبيد ربما ، وذلك أختفى أيضا دون أن يترك أثرا . وبينما أنا مشغول بتتبع قلمى ، سقطت كراستى ، وقعت على الأرض ، استعدتها فى الحال ، بإدخال خطاف العصا بأحد شقوق الغلاف ، ورفعها بلطف . وخلال كل هذا الوقت المزدحم بالأحداث والنوائب ، كان رأسى ، كما أفترض ، تعبره وتخرج منه الأحداث كبوابة السد ، حتى لم يبق شيئا سواء لمالون أو الآخر ، ما الذى يمكننى تتبعه دون صعوبة من حالات الخلاص المختلفة ، ولا أشعر بالدهشة لسلوكه الشاذ ؟ مرة بسرعة ، وأخرى ببطء ، كان فهمى صافيا كالكريستال للأسباب التى لا تجعله غير ذلك . وابتهج أكثر بفكرة أنى قد عرفت ما يجب عمله ، أنا الذى كل حركته تتحس ، وعجزه تلمس ، لقد اعتدت على تحسس الاشياء وأنا جامد الحركة ، ومن الطبيعى أن

أخدع هنا ، أعنى فى تخيلى أنى أمسكت أخيرا بالطبيعة الحقيقية لمصائبى العبثية ، ولست فى حاجة للوم نفسى عليها لأنى قلت كم هى يسيرة وجميلة ، وفى الوقت ذاته فكرت بأن كل شىء سيغدوا ظلاما فى النهاية . وبلا حزن مفرط فإنى أرانا ثانية كما نحن فى الحقيقة ، بمعنى أننا سننقل حبة حبة حتى تتعب اليد فتبدأ اللعب ، تغرقنا ثم تتركنا نسيل الى المكان ذاته ، كالحلم . أعرف أن الامر سيكون كذلك . ويجب أن أقول ، بالنسبة لى على الأقل ، وبقدر ما أذكر ، فإن الإحساس باليد العمياء التعبة مألوف ، وهى تنقب بوهن وسط أدواتى وتتركها تنسل من بين أصابعها ، وأحيانا ، حين يعم الهدوء ، أشعر بها تندفع فى جسدى حتى الكوع ، بلطف كأنها نائمة ، لكن سرعان ما تتحرك ، تستيقظ ، تداعب ، تتشبث ، تنقب ، تخرب ، منتقمة لفشلها ، ثم تبعثرنى بكنسة واحدة ، أستطيع أن أفهم . شعرت بأشياء كثيرة غريبة ، وأشياء عديدة بلا أساس بالتأكيد ، والأفضل ألا تقال ، لأتحدث عن الفترة التى أصبحت فيها سائلا وتحولت الى شىء كالوحل ، لكن ما فائدة ذلك ؟ أو حين كدت أضيع فى ثقب إبرة، لكنى صلب ومتوافق ، لا . هذه ارتباكات لن توصلنى إلى شىء كنت أتكلم عن تسليتى ، أليس كذلك ؟ وأظن أنى كنت على وشك القول أنى يجب أن أرضى نفسى بها ، بدلا من إطلاق كل هذا الهراء حول الحياة والموت . وإذا كان هذا كل شىء ، وأعتقد إنه كذلك ، لأنه لا يوجد شىء حول أى شىء حسب ما أذكر ، فعلام كل هذا ؟ لا أستطيع فى هذه اللحظة أكثر من أن أحمل سريرى وأمشى . فالحياة والموت أمر غامض ، لابد إنه كانت لدى فكرة صغيرة حول الموضوع حين بدأت ، وإلا ما كنت بدآت ، وأرحت دماغى ومضيت فى سلام ، ملولا حتى العواء ، لاعبا بتسليتى وألعابى البسيطة ، بالمخروطات والاسطوانات وحبوب الدخن التى تحبها الطيور وأشياء أخرى تبعث على الذعر . حتى يتعطف أحد ويدفننى . لكنها هربت من دماغى فكرتى الصغيرة الخاصة ، لا يهم ، فقد طرأت

على ذهنى فكرة أخرى ، ربما هى الفكرة ذاتها عادت ثانية ، فالافكار تتشابه حين تتعرفها ، تولد ، تركب موجة المخ ، بمعنى إنها تعيش طويلا لمدة كافية لتعتاد على غاز الكربون ، ثم تقول شكرا على الوقت اللطيف وتمضى . ذلك كان حلمى العميق دائما ، كل الأشياء التى شكلت أحلامى العميقة ، كانت خيوطا كثيرة ولا شعاع أبدا . نعم . جنين قديم ، ذلك ما هو أنا عليه الآن ، أشيب وعاجز يبتغى أما ، أصبتها بالتعفن ، ستسقطنى بالغرغرينا ، وقد يكون أبى فى الحفل أيضا . سأهبط برأسى أولا ، أموء فى المقبرة ، لن أموء فالأمر لا يستحق. كل القصص التى أرويها لنفسى تلتصق بمخاط متعفن وتتضخم وتتورم قائلة خذ يا أسطورتى لماذا هذه الحرارة المفاجئة ؟ هل حدث شىء أو تغير شىء ؟ لا . الجواب لا . لن أولد ، وبالتالى لن أموت أبدا . عمل جيد . إذا تحدثت عن نفسى وعن الآخر الذى هو أنا فى صغره ، فذلك كالعادة بسبب الحاجة إلى الحب ، سيلاط بى ، لم أتوقع ذلك ، الرغبة فى خطيئة ، لا أستطيع التوقف . يبدو لى أحيانا ، أنى قد ولدت وعشت حياة طويلة ، وقابلت جاكسون ، وتجولت فى البرية والمدن والغابات ، وتسكعت على شواطىء البحار والدموع فى عينى ، وفى أشباه الجزر حيث الليل المضاء بالانوار الصغيرة الصفراء البشرية ، والأشعة البيضاء الكبيرة الملونة تسطع فى الكهوف حيث كنت سعيدا منبطحا على الرمل قرب الصخور مع رائحة الأعشاب البحرية والصخور المبتلة ، وعويل الرياح ، والأمواج تسوطنى بالزبد أو تتنهد على الشاطىء بخفة تمسك الحصى . لا . ليس سعيدا ، لم أكن قط سعيدا .. كنت راغبا ألا ينتهى الليل أبدا ، ولا يبزغ الصباح أبدا حين يستيقظ البشر ويقولون تعال لنستغل معظم وقتنا فسنموت قريبا . لكن ما الفائدة؟ سواء ولدت أم لم أولد ، عشت أو لم أعش ، ميت أو فى سبيلى إلى الموت سأمضى فيما أفعله كما اعتدت أن أفعله دائما ، دون أن أعرف ما الذى أفعله أو من أنا أو أين أنا أو اذا كنت أنا هو أنا .

نعم . مخلوق صغير . سأحاول أن أصنع مخلوقا صغيرا . أحمله بين ذراعى ، مخلوق صغير فى خيالى ، وحين أرى بؤس الشىء الذى صنعته ، وكم هو يشبهنى ، ساكله ، ثم أصبح وحيدا وقتا طويلا ، تعيسا ، جاهلا بالصلوات التى يجب أن أتلوها ، ولن أتلوها .

★★★

استغرقت وقتا طويلا لأعثر عليه ، لكنى وجدته. كيف عرفت أنه هو ؟ لا أدرى، أو ما الذى غيره إلى هذه الدرجة ؟ ربما الحياة ، والنضال من أجل الحب والأكل والهروب من الوعاظ . انزلقت داخله مفترضا أنى قد أتعلم شيئا . كان طورا تاريخيا أو طبقة اجتماعية دون أطلال أو علامات . لكن قبل أن أكون بداخله سأبحث عن آثاره وما الذى كانه . مررت به فى قلب المدينة جالسا على مقعد طويل . كيف عرفت أنه هو ؟ من العينين ربما ، لا ، لا أعرف كيف عرفت . لن أصحب أحدا فقد لا يكون هو . لا يهم ، فهو لى الآن ، جسد حى، لا حاجة للقول إنه ذكر ، يعيش فى ذلك المساء حياة تشبه النقاهة . لو أن ذكرياتى ملكى ، لاستطعت الارتعاش فى يقظة الشمس فى الوقت المناسب، أو استمتعت بأعماق أعمق من الموتى ، فى أنفاق المترو مع نتن رائحة الرعاع المرهقين وهم ينطلقون من المهد إلى اللحد ليصلوا إلى المكان المناسب فى الوقت المناسب . ماذا أريد أكثر؟ نعم تلك هى الأيام تسرع إلى الليل وتضيع تماما بحثا عن الدفء ولقم صالحة للأكل ، وتتخيل أنها ستظل كذلك للنهاية . وفجأة يبدأ كل شىء فى الثورة والزئير، وتضيع فى غابات من السرخس الطويل المدروس ، أو تنوخ من اللف فى وجه فضلات كنستها الرياح ، حتى تبدأ فى التساؤل ألا تكون قد مت وذهبت الى الجحيم دون أن تدرى ، أو أنك ولدت ثانية فى مكان أسوأ من مكانك السابق من الصعب تصديق تلك السنوات القصيرة . حين ينغمس الخبازون عند نهاية اليوم فى عمل فطائر التفاح ، كنت دوما رجلها ، وتسرع الى الحفل إذا عرفت طريقك مع قليل من شعاع الشمس ومأوى لمن يحتاجه بدرجة مريعة .

وها هو ذا نقى كالذهب ، يجلس على مقعد طويل وظهره للنهر . أما لباسه ، مع أنى أعرف إن الملابس لا تهم ، لكنه لن يحصل على ملابس غيرها أبدا ، فلا مانع أن تعرف شيئا عنها . لقد لبسها فترة طويلة بالفعل بالحكم على قدمها ، لكن لا يهم . فهى آخر الملابس التى سيرتديها . والأكثر تميزا فيها معطفه الكبير. فهو يغطيه تماما ويحجبه عن النظر . فهو مزرر تماما من فوق الى تحت بخمسة عشر زرا على الأقل ، مرصوصة الواحد على بعد ثلاث أو أربع بوصات من الآخر على الأكثر ، بحيث لا يرى شيء مما يحدث داخله ، بل حتى إن القدمين المنبسطتين على الأرض بخجل جنبا إلى جنب ، تختفيان جزئيا تحت هذا المعطف، على الرغم من انثناء جسده المضاعف ، أولا عند قاعدة الجذع حيث تكون الفخدان زاوية قائمة مع التجويف الحوضى ، ثم مرة ثانية مع الركبتين حيث قصبة الساق تكمل العمود . ولأن الوضع ينقصه الانسياب ، ولعدم وضوح الترابط فقد تظن أنه مربوط فى المقعد ، لجمود شكله وجلوسه بزوايا حادة مثل تمثال «ميمون» ابن الفجر المحبوب . حين يقف ثابتا أو يمشى فإن ذيل المعطف يكنس الارض بالمعنى الحرفى ، ويصدر صوتا كالقطار. فى الواقع ، فإن هذا المعطف ينتهى بطرف مثل بعض الستائر ، وقد تنسلت خيوط الكمين مكونة جدائل متموجة ترفرف فى الريح ، لكنهما يخفيان اليدين ، فهما متماسكان مع باقى أجزاء هذه الخرقة الكبيرة ، أما الياقة فقد ظلت سليمة ، فهى مصنوعة من القطيفة أو شىء كالوبر . بالنسبة للونه ، وللون اعتبار كبير ومن غير المستحسن إهماله ، فكل ما يمكن ان يقال عنه : يغلب عليه الأخضر . ويمكن أن تراهن وأنت مطمئن بأنه حين كان جديدا ، كان من لون أخضر نضر جميل ، أخضر «عرباتى» لأن هناك عربات تجوب المدينة بلون أخضر جميل كلون الزجاجات ، لقد رأيتها بنفسى بل ركبتها فلا يمكن أن أهملها. لكنى مخطىء فى اطلاق صفة عظيم على هذا المعطف ، من الأفضل أن أسميه معطفا خارجيا أو معطف الجسد

كله ، فذلك هو الانطباع الذى يعطيه ، فهو يغطى الجسم كله ، ما عدا الرأس الذى ينبثق منه عاليا وثابتا وخاليا مما يطوقه . وبدت علامات العاطفة على الوجه، والتأثر ربما ، ويبدو أنه توقف عن المعاناة فى الوقت الحاضر . ولكن من أين للمرء أن يعرف ؟ بالنسبة للأزرار ، فليست متميزة ، فهى قطع من الخشب الأسطوانية بطول بوصتين أو ثلاث ، فى وسطها ثقب للخيط ، من المعتاد أن يكون هناك ثقبان أو أربعة ، لكن هنا واحد يكفى بسبب الانتفاخ المفرط الناتج عن الربط والفك . اسطوانة فيها مبالغة ، لأنه اذا كانت بعض هذه الأخشاب أسطوانية فى الواقع ، فهى مازالت ليس لها شكل محدد ، غير مستوية بطول بوصتين ونصف ، مما يمنع الاطراف من أن تتباعد طائرة ، لتحتوى هذا المخلوق بشكل عام . أما القماش الذى صنع منه ، فكل ما يمكن قوله إنه يشبه اللباد . كما أن كل الانبعاجات والانتفاضات المختلفة الموجودة عليه بسبب التواءات الجسد وتشنجاته بقيت كما هى . هذا يكفى حول المعطف . أما الحذاء فسأحكى عنه فى وقت آخر . القبعة صلبة كالحديد ، تقف شامخة فوق حافتها الضيقة المثنية ، يشوهها شق واسع يمتد من الأمام فى القمة حتى أسفل القبعة ، وربما قصد به تسهيل دخول الجمجمة فيها . وبينما المعطف كبير جدا ، فإن القبعة صغيرة جدا بحيث تنطبق الحافة المشقوقة على الجبين كفكى مصيدة ، كما أنها مربوطة بخيط فى أعلى زر من المعطف ، للأمان . وحيث إنه لم يبق ما يقال عن تكوينها ، فإن أهم شىء لم يقل بعد ، أعنى بالطبع لونها . وكل ما يمكن قوله إن الشمس الحامية التى تسقط فوقها تجعلها تصدر وميضا أصفر قاتما أو رماديا لامعا، على عكس حوافها السوداء ، ولن يدهشنى لو علمت أنها كانت لرجل رياضى ، او يعمل فى حلقة سباق ، او مربى خراف . واذا حاولنا ان نقيم المعطف والقبعة بجمعهما معا دون انفصال ، فستدهش لاتفاقنا بسرعة بأنهما متجانسان تماما. ولن يدهشنى لو عرفت أنهما قد اشتريا من الترزى وبائع القبعات فى اليوم

ذاته ومن الشخص عينه، لأن مثل هؤلاء الرجال موجودون ، الأنقاء بطول ست أقدام أو أكثر ، أناقتهم متلائمة على الرغم من صغر الرأس الذى يدل على حسن التربية والأدب . إنها لسعادة أن يجد المرء نفسه ثانية فى حضور إحدى هذه العلاقات الراسخة بين هذه العلاقات الهارمونية المنتهية ، وتأثيرها الذى يوصل المرء اذا كان تعبا لدرجة الموت الى —— كدت أقول خلود الروح ، لكنى لا أرى العلاقة .

لنذهب الآن إلى الرداء ، الذى يهم حقيقة . رداء تحتى شخصى جدا . كل ما يمكن قوله عنه إنه من قماش لطيف . لأن «سابو» - لا أستطيع أن أدعوه هكذا ثانية وأعجب كيف استسغت هذا الاسم حتى الآن - لنقل «ماكمان» وهو اسم ليس أفضل من الأول لكن ليس لدى وقت لأضيعه ، لأن ماكمان سيبدو لكل واحد اكثر عقلا ورصانة وهو عار تحت هذه الزرنامقة . المشكلة أنه لا يتحرك . زوراق السحب بمداخنها المخططة بالأحمر ، تجر الصنادل الأخيرة المحملة بالبراميل الفارغة الى الحوض الخاص بها . وهو هناك منذ الصباح حتى المساء . المياه ترسم من غروب الشمس مهدا من النيران ، برتقالى ووردى وأخضر ، تخمده بتموجاتها الخفيفة ، فيتحول الى برك تترجرج وينتشر اللمعان ثانية ، ظهره الى النهر ، لكنه يدركه من صرخات النوارس المرعبة المحتشدة ، فى احتدام الجوع ، حول مخارج المجارى فى مواجهة فندق «بيليفو» . فهى فى هيجانها الأخير قبل الليل وظلمته الرهيبة ، تقوم بهجومها الخاطف تلتهم الفضلات بشراهة . وجهه تجاه الناس التى تحتشد فى الشوارع بكثرة فى مثل هذه الساعة . انتهى يومهم الطويل والمساء كله أمامهم .

تفتح الابواب وتتقيأهم ، كل باب وظروفه . يتعنقدون لحظة وكأنهم فى غفوة ، يسيرون على جانب الطريق او فى مصارف الماء جماعات ، ثم ينطلقون فرادى فى طرقهم الخاصة . الجميع يسيرون فى البداية ، فى الاتجاه نفسه ، حتى

المستنكرون ، ثم يشق كل واحد طريقه منفصلا عن الآخرين بأدب واعتذار لطيف او دون كلمة . فكل منهم يعرف سبل الآخر الصغيرة . وليساعد الله من تتوق نفسه ، مرة ، فى حريته المستردة ، ان يسير قليلا مع زميل ، أى زميل ، إلا اذا رمت المصادفة الحميدة بمخلوق يشاركه ورطته ، يسيران خطوات قليلة بسعادة جنبا الى جنب ، ثم يفترقان مهمهمان . لا أحد الآن يعيق أحدا . مهمة معظم الازواج ، فى هذه الساعة ، التلهف على الشهوات ، وهم قلة بالمقارنة بمن يعانون الوحدة ، يضربون فى الزحام ، يتسكعون عند مداخل أماكن اللهو ، ينحنون فوق الحواجز ، يستندون على الحوائط ، لكن سرعان ما يصلون الى مكانهم المحدد ، فى بيوتهم أو بيوت أخرى ، او الى مكان عام او فى مدخل بناية حتى لايبللهم مطر محتمل . ولا ينتظر كثيرا ، لأن الكل يسرع فى اتجاه الآخر ، فالوقت قصير والاشياء التى تثقل القلب والوعى كثيرة ، وليقوما بما يجب ان يعملاه معا ، أشياء لا يستطيع المرء أن يفعلها وحده ، وهما فى أمان هناك لعدة ساعات ، ويحل النعاس، دفتر الذكريات الصغير بقلمه الخاص القصير ، الوداع بالتثاؤب ، البعض يأخذ عربة أجرة ليصل بسرعة الى موعد اللقاء ، او بعد انتهاء المتعة ، الى البيت او الفندق حيث ينتظرهم فراشهم المريح . وترى المرحلة الأخيرة للحصان ، بين وظيفته الحالية ، كحصان أليف أو حصان سباق أو حمل او حرث وبين المشى المتثاقل يقضى معظم وقته واقفا ثابتا فى وضع التغوط ، يتدلى رأسه بقدر ما تسمح عدته وعمود العريش ، بمعنى أنه قرب حجارة الرصيف تقريبا . وما إن يتحرك حتى يتغير الوضع مؤقتا، بسبب الذكريات التى تثيرها تلك الحركة، فلا الجرى او السحب قادران على تغييره واعطائه الاقتناع الكافى تحت هذه الظروف ، لكن ما إن يشد عمود العريش ، معلنا أن أجرة الركوب قد دفعت ، أو حين تغير العربة اتجاهها بناء على رغبة الراكب الذى يجلس فى اتجاه الطريق الذى يريده ، فإن الحصان يدير رأسه ويشد عراقيبه ويبدو راضيا تماما . وترى

السائق وحيدا فى صندوقه المرتفع عشر أقدام عن الأرض ، ركبتاه مغطاتان فى كل الفصول وكل الاجواء بخرقة بنية ، كقاعدة عامة ، من ذات نوع الخرقة التى نتشها عن كفل الحصان . وهو عنيف وشاحب ربما بسبب فاقة الركاب فالأجرة القليلة تثيره الى حد الجنون . يرخى اللجام للحصان بيديه الكبيرتين الضخمتين ، وهو منحن على حصانه ينزل بطرقعة على طول ظهره بالسوط ، ويطلق العنان ، بعماء ، للحصان عبر الشوارع المزدحمة المظلمة ، وفمه مملوء باللعنات . أما الراكب ، وقد لفظ اسم المكان الذى يريد الذهاب اليه ، عارفا عجزه عن التصرف بمجرى الاحداث حيث الصندوق الذى يجلس فيه يعزله عمن حوله ، يترك نفسه للشعور الممتع بتحرره من كل مسئولية ، يتأمل ما يراه أمامه او خلفه مصدرا بعض التعليقات ، التى تختلف من راكب إلى آخر . وهكذا يسرعون ، الحصان والسائق والراكب تجاه المكان المحدد بأقصر الطرق او عن طريق ناء حسبا لخطأ الراكب . الحصان أقل توترا من سائقه، وعموما فهو لا يعرف أين يذهب حتى يصل، ولا حتى آنذاك .

إنه الغسق كما قلنا ، وهناك ظاهرة أخرى يمكن ملاحظتها ، عدد النوافذ وواجهات المحلات التى تضىء انوارها بعد غروب الشمس ، يعتمد ذلك على الفصل أيضا . بالنسبة لماكمان فالحمد لله ما زال هناك . الوقت مساء ربيعى حقيقى ، ريح معتدلة ، تصفر على طول الارصفة التى تحدها منازل عالية حمراء ، معظمها مخازن . او إنها إحدى أمسيات الخريف ، وهذه الاوراق المتطايرة فى الجو ليست خضراء ، فلا توجد هنا أشجار وليست بداية العام ، هى اوراق شجر قديمة عرفت متع الصيف الطويلة ، والآن لا تصلح لشىء سوى ان تتكوم لتتعفن . لا يحتاج الرجال او الحيوانات، الآن، الى الظل ، بل على العكس ، ولا الطيور الى أعشاش تبيض فيها ويفقس البيض ، فلا بد للشجر أن يسود حيث لا ينبض أى قلب ، مع أن هناك أشجارا تبقى خضراء للأبد لأسباب غامضة . بالنسبة

لـ«ماكمان» الأمر سيان أكانت ربيعا أم خريفا ، اذا لم يكن يفضل الصيف على الشتاء او على العكس ، وهذا محتمل . ويجب ألا يظن أنه لن يتحرك من هذا المكان او الموقف لأن العمر الطويل ما زال أمامه ، فهذا النوع من الخاتمة ، حيث لا يتضح ما يحدث ، ولا يضيف الكثير لما يراد بالفعل ، او يلقى ضوءاً كبيرا على اختلاط الأمور ، له فائدته بلا شك ، كالقش الذى يترك ليجف قبل ان يخزن. لكنه سينهض ، أحب ذلك أم لم يحب ، ويتقدم الى مكان آخر من أمكنة عدة ، ومن مكان آخر الى غيره ، إلا اذا عاد ثانية الى هنا حيث يبدو أنه استراح تماما ، لكن المرء لن يعرف أبداً أليس كذلك ؟ وتظل هكذا سنوات طويلة . فكى لاتموت لابد ان تأتى وتذهب وتأتى وتذهب، إلا اذا حدث أن أحدا يحضر لك الطعام اينما كنت ، مثلى ، آنذاك يمكنك ان تبقى يومين او ثلاثة او حتى أربعة دون أن تحرك يدا أو قدما . ولكن ما الايام الاربعة حين يكون أمامك عمر ممتد ، قطرة فى محيط وبطء التبخر ، حقيقة لا نعرف شيئا ، أنت تتعلق نفسك وأنت معلق بخيط مثل كل البشر ، لكن ليست تلك هى القضية ، ولأنه لاتوجد قضية،لا قضية فى عدم معرفتك هذا او ذاك ، فإما أن تعرف كل شىء او أنك لا تعرف شيئا . و«ماكمان» لا يعرف شيئا ، ومهتم بعدم معرفته بعض الاشياء التى تجعله مرعوبا وسط الآخرين، الانسانية منها فقط . إنها سياسة رديئة ، ففى اليوم الخامس لابد من نهوضك ، لكن كم من الآلام ستعانى لو فكرت أن تقوم اليوم الذى قبله ، او قبل ذلك بيومين ، وهو الأفضل ، لماذا تضيف الى آلامك ، إنها سياسة رديئة . فى اليوم الخامس حين تكون المشكلة كيف تنهض ، لا يهم اليوم الثالث أو الرابع كثيرا ، كل ما يهم كيف تقوم ، لأنك نصف مجنون ، وأحيانا لا تستطيع أن تصل الى قدميك ، أعنى عليك أن تجر نفسك الى أقرب قطعة أرض مزروعة بالخضراوات مستعينا بخصلات من العشب والارض الخشنة لتسحب نفسك الى الأمام ، او لأقرب أجمة من العوسج حيث توجد هناك أحيانا أشياء قابلة للأكل

حتى لو كانت حمضية ، والأفضل من ذلك أنك تستطيع الزحف خلالها والاختباء ، كما لا تستطيع أن تفعل فى كومة من البطاطس مثلا ، وغالبا ما تخاف الاشياء الصغيرة المتوحشة ذات الفراء او الريش. وتكون المسألة ، ليس فى أنك تراكم فى يوم واحد طعاما يكفى لمدة ثلاثة أسابيع او شهر ، ثم ما هو الشهر بالمقارنة بكل مرحلة الشيخوخة . قطرة فى دلو، ولكن إنه لا يملك ذلك ، ولا يمكن ان يستخدمه حتى لو أراد . فهو يشعر بإنه بعيد عن الغد ، وربما لا يوجد غد بالنسبة لشخص انتظر كل هذا الوقت الطويل عبثا ، وقد وصل الى مرحلة تكون فيها الحياة هائمة بآخر الاحياء فى أعماق لحظة بلا قيود ، حيث لا يتغير الضوء أبدا ، ويبدو كل الحطام متشابها . وتحملق العينان فى الفراغ أمامهما ، فى العمق الكبير وهدوئه الثابت ، بلون أكثر زرقة بقليل من بياض بيضة ، وتنغلقان فترات طويلة ، بمفاجأة لطيفة حيث تغلق قطعة اللحم ، غالبا بلا توتر ، وتنطبق على نفسها ، لذا ترى الجفون المعمرة ، حمراء مهترئة بحيث تبدو صعبة على الاغلاق ، فهناك أربعة منها ، اثنان لكل غدة دمعية . ربما يرى فى ذلك الوقت سقف أحلامه القديمة ، وسماء البر والبحر ، وفورة الأمواج على الشواطىء ، كل يتحرك حركته الأخيرة المتضائلة ، وحركة البشر المختلفة وغير المرتبطة معها فهم أحرار فى المجىء والذهاب ، يستغلون حركتهم أفضل استغلال ، يأتون ويذهبون ، عيونهم الكبيرة ومحاجرهم تلقلق وتطقطق مثل بائع الاشياء القديمة كل فى طريقه ، وحين يموت أحدهم ، يسير الآخرون كما لو أن شيئا لم يحدث .

★★★

أنا أشعر . أشعر بأنها قادمة ، كيف ذلك ؟ حمدا لله إنها قادمة . أريد أن أتأكد تماما قبل أن اسجل الملاحظة . شديد التدقيق لآخر لحظة ، صعب الارضاء بالنسبة للخطأ ، ذلك هو «مالون» . انتهى . أعنى أننى متأكد من أن ساعتى قد دنت. لم أشك لحظة أنها قادمة عاجلا أو آجلا ، عدا الأيام التى شعرت فيها بأنها مرت.

وكأن كل قصصى كانت بلا طائل ، فى أعماقى لم أشك لحظة حتى فى الأيام التى قالت إنى ما زلت حيا أتنفس شهيقا وزفيرا من هواء الارض . إنه فى متناول اليد ، يومان او ثلاثة بلغة الأيام ، حين علمونى اسماء الايام اندهشت لعددها القليل ، ولوحت بقبضتى الصغيرتين طالبا المزيد ، فكيف أخبر عن الوقت ، وما اليومان او الثلاثة او أكثر او أقل على المدى الطويل ، نكتة . ولكن لا كلمة عن المباراة الخاسرة ، ذلك مفيد للصحة ، كل ما على أن أفعله أن أمضى كما لو أنه مقدر لى أن أرى قمر منتصف مايو . لأنى أعتقد أنى وصلت الآن لما يسمى بشهر مايو الذى جاء اسمه من «مايا» . اللعنة فأنا أذكر ذلك ، مايا ربة التكاثر والوفرة، أعتقد أنى دخلت فصل التكاثر والوفرة ، التكاثر أولا ، لأن الوفرة تأتى أخيرا مع الحصاد. اهدئى ايتها النفس ، سأظل هناحتى عيد «كل القديسين» وسط الاقحوان، لن أسمعهم يعوون فى المقابر، لكن هذا الاحساس من التفاؤل من الصعب ان يقاوم ، مع أنه كله يصب تجاه أقرب الاعماق ، خاصة قدمىّ ، فهما فى حالتهما الطبيعية تكونان بعيدتين عن بقية الجسد ، أعنى عن رأسى ، حيث أفر دوما . قدماى تبعد أميالا . ولكى أقربهما للتنظيف مثلا فذلك يستغرق شهرا دون الوقت المطلوب لتحديد مكانهما . غريب ، لا أحس بهما اطلاقا ، وهما لا تحسان بشىء ، الحمد لله على ذلك . أشعر بأنهما أبعد من أن يرقبهما تلسكوب كبير قوى ، هل ذلك معنى «رجلك فى القبر» ؟ بقية الاعضاء كذلك . ظاهرة محلية مجردة لم ألاحظها ، لقد كنت سلسلة او بالأحرى تتابعات لظواهر محلية طوال حياتى دون أية نتيجة . فأصابعى تكتب أيضا فى مناطق أخرى ، فالهواء الذى يمر عبر الصفحات يقلبها حين أغفو دون أن أعرف ، فيقع الفاعل فى صفحة والمفعول به فى مكان ما فى الفراغ ، ألا ينتظر الهواء هذه اللحظة قبل الأخيرة ، الشكر إنه كذلك. فى يدى وميض ظلال الاوراق والزهور ولمعان شمس منسية . والآن الى الجنس أعنى الانبوبة ذاتها ، وخاصة الرأس منها . حين كنت بكرا ،

كان يضرب بقوة ، وتخرج منه كتل من المنى مندفعة تخبط وجهى ، تيار متدفق ، ثم تنزل قطرات من البول بين حين وآخر وإلا مت من انحباس البول . لا أتوقع أن أراه بعينى ثانية ، ولا أرغب فى ذلك ، فلقد حملقنا فى بعضنا مدة كافية ، لكن ذلك يعطيك فكرة ما . لكن ذلك ليس كل شىء ، فالأطراف ليست الاجزاء الوحيدة التى تتقلص فى مساراتها المعقولة ، بالنسبة لمؤخرتى مثلا التى من الصعب إدراجها فى أنها طرف لأى شىء، لو بدأت تشخ الآن فجأة ، الحمد لله أنها لا تفعل ، أعتقد جازما ان كتل الخراء ستقع فى استراليا . واذا قدر لى أن أقف ثانية - يحفظنى الله من ذلك - أتخيل أنى سأملأ حيزا معتبرا ، ليس أكثر مما أنا فيه فى وضع الاستلقاء ، لكنى أكبر بشكل ملحوظ ، لأن الذى لاحظته غالبا أن الطريقة الوحيدة كى تمضى دون أن يلاحظك أحد ، هو أن تستلقى مسطحا ولا تتحرك . وهذا هو وضعى ، كنت أظن أنى أنكمش وأنكمش حتى يمكن دفنى فى النهاية فى عليبة ، لكنى أتضخم . لايهم. على الرغم من قصصى استمر فى أن أظل مناسبا لهذه الغرفة ، دعنا نطلق عليها غرفة ، ذلك ما يهم ولا داعى للقلق . سأظل مناسبا لها ما دامت الحاجة قائمة لذلك . واذا نجحت فى التقاط آخر أنفاسى ، فلن يكون ذلك فى الشارع او فى مستشفى ، ولكن هنا وسط ممتلكاتى، بجانب هذا الشباك الذى يبدو أحيانا أنه مرسوم على الحائط مثل سقف «تابيولو» فى «ويرزبرج» ، سأكون سائحا رائعا آنذاك، أتذكر النقاط على الحروف اذا كانت هناك نقطة ، لو استطعت أن أتأكد ، من سرير موتى أعنى ، كم رأيت هذا الرأس يندفع خارج الباب منخفضا ، فعظامى المعمرة الكبيرة تزن ثقيلا ، والباب منخفض ، وما زال ينخفض فى رأيى ، فى كل مرة يصطدم بعارضة الباب، فأنا طويل والمدخل صغير ، والرجل الذى يحملنى لا يستطيع ان ينتظر حتى يكون كل جسدى خارج الباب ، ثم يهبط السلالم ، فهو يبدأ فى الاستدارة حتى لا يصطدم بالمدخل ، وهكذا يخبط رأسى بعارضة الباب ، ذلك

حتمى . بالنسبة لرأسى ، فى الحالة التى هو عليها ، الأمر لا يهم ، لكن الرجل الذى يحملنى يقول «إيه يا بوب بالراحة»، بشىء من قلة الاحترام ، لأنه لا يعرفنى، أو خوفا من أن يؤذى أصابعه . طاخ ! بالراحة ! صح ! الباب! وتفرغ الغرفة أخيرا ، وتكون على استعداد لاستقبال عائلة جديدة او زوج من الحمام البرى. نعم، لقد مرت الحادثة والوقت مبكر على استخدامها ، لذا كان التأخير ، ذلك ما أقوله لنفسى ، مع أننى أخبر نفسى بأشياء عديدة ، فأين الحقيقة فى كل هذه الثرثرة ؟ لا أعرف . أعتقد ببساطة أنى لا يمكن أن أقول شيئا غير حقيقى. أعنى إنه لم يحدث ، فهو ليس الشىء نفسه ، ذلك لا يهم . وذلك ما أحبه فى شخصى ، او على الأقل أحد الاشياء التى أحبها . فأنا استطيع القول تحيا الجمهورية ، أو حبيبتى ! مثلا دون أن اتساءل هل قطعت لسانى او قلت شيئا آخر .نعم ، لا يحتاج المرء الى تأمل ، قبل أو بعد ، كل ما على أن أفتح فمى فتطلع كل قصتى القديمة والصمت الطويل الذى أخرسنى ، فيصمت الكل . واذا حدث وتوقفت عن الكلام ، فالسبب أنه لا يوجد ما يقال ، مع أن كل شى لم يقل ، لكن دعنا نترك هذه الامور السقيمة ونحكى عن موتى خلال يومين او ثلاثة واذا لم تخنى الذاكرة . سينتهى الأمر آنذاك مع آل مورفى ، وميرسيه، وموللوى ، وموران ومالون إلا اذا سار الحديث الى ما وراء القبر . ذلك يكفى اليوم ، دعنا نبدأ بفتح باب الموتى ، ثم نرى . كم شخصا قتلتهم بضربهم على الرأس او بإشعال النار فيهم ؟ استطيع أن أفكر فى أربعة ، كلهم مجهولون لى ، لم أعرف واحدا منهم . رغبة مفاجئة انتابتنى ، رغبة مفاجئة فى أن أرى ، كما حدث فى الايام الخوالى ، شيئا ما ، أى شىء مهما كان ، لم أستطع تخيله . هناك ذلك الساقى العجوز أيضا ، أظنه من لندن ، ها هى لندن مرة أخرى . ذبحته بموسه ، ذلك يجعل المجموع خمسة ، يبدو لى أن له اسماً ، نعم ، ما أحتاجه الآن لمسة مما لا يخطر على بال ، الافضل أن يكون ملونا ، فذلك سيريحنى ، لأن هذه قد تكون رحلتى الأخيرة الى الصالات

العالية المألوفة حيث علقت شموسى وأقمارى الصغيرة عاليا ، وملأت جيوبى بالحصى لتدلل على الرجال وفصولهم ، الرحلة الأخيرة اذا كنت محظوظا ، ثم أعود الى هنا ، إلى ، مهما يعنى ذلك ، ولا أتركنى ، ولن اسأل نفسى عما لم أمتلكه ، او ربما نعود جميعا ، يلتم شملنا ، ونقوم بالودا ع ، نتفحص بعضنا ، الى هذا العرين الصغير الكريه ثانية ، المأوى المفتقد الابيض القذر كما لو أنه حفر فى عاج سن متعفن قديم . أو أعود وحدى ، وحيدا كما ذهبت ، لكنى أشك فى ذلك فأنا أسمعهم من هنا ، يلحون فى طلبى عبر الممرات ، يتعثرون فى الحجارة ، يتوسلون لأصحبهم . ذلك ينهى الأمر . كل ما لدى هو الوقت ، اذا ما حسبت بشكل صحيح ، أما اذا حسبت بشكل خاطىء ، فالأمر أفضل ، ولا تسأل عن شيىء آخر ، فقط وقت لأذهب وآخذ جولة صغيرة ، وأعود الى هنا لأفعل ما يجب فعله ، نسيت ما هو، نعم تذكرت ، أرتب ممتلكاتى ، ثم شيئا آخر ، نسيته ، سأذكره حين يحين الوقت ، قبل أن أذهب أود أن أجد ثقبا فى الحائط يحدث وراءه الكثير ، أشياء غريبة ، غالبا ملونة ، لمحة أخيرة، و أشعر بعدها أنى انزلق بسعادة كما لو أننى – كدت أقول اعتلى افروديت ، بلا جدال أن لكل هذا أن يتوقف . هذا الشباك ، فى النهاية ، مهما أردته ان يكون ، فهو جيد لدرجة ما ، لا يعرضك للشبهة او الفضيحة . ما يجعلنى ابدأ به ، أنه أصبح أكثر استدارة مما كان عليه ، يشبه عين الثور او كوة فى سفينة او طائرة ، لا يهم ، فهناك شىء ما على الجانب الآخر ، اولا أرى الليل الذى يدهشنى ، وأنا أريد أن أدهش مرة واحدة أخرى ، حيث إن ما فى الغرفة ليس بليل. لم يكن هنا ليل حقيقى ، لا أهتم بما قلت ، لكنى غالبا أكثر ظلاما من الآن . بينما هناك فى الخارج عاليا فى السماء ، ليل أسود حالك مع نجوم قليلة تكفى لتبين أن السماء التى أراها هى سماء البشرية وليست مجرد رسم على زجاج النافذة، فهى ترتعش كنجوم حقيقية مما لا يمكن أن يحدث لو كانت

مرسوة. وبما أن ذلك لا يكفي لاقتناعي بأنه العالم الخارجي، عالم البشر الآخر، إذ بالشباك الذي يقع عبر الشارع يضيء، أو أدرك فجأة أنه أضيء، فأنا لست ممن يحكمون على الشيء بنظرة واحدة، لكني أدقق النظر طويلا وبثبات، وأعطي الأشياء وقتها لتقطع الطريق الطويل الذي يقع بيني وبينها، وذلك في الواقع فرصة سارة للتكهن الجيد، إلا إذا كانت حاجة مخترعة بغرض السخرية مني،، فأنا لا أجد أفضل ما يبعدني بسرعة عن هذا المكان مثل سماء ليلية لا يحدث فيها شئ، مع أنها مملوءة بالاضطراب والعنف، لا ترى شيئا يحدث إلا إذا كان أمامك الليل بطوله تتبع فيه السقوط والصعود البطيء لعوالم أخرى إذا كان هناك أي منها، أو تترقب النيازك، وليس أمامي الليل كله. النافذة مضاءة، لايهم لو جاءوا قبل الفجر، أو لم يذهبوا للنوم، أو يظهروا في منتصف الليل لينهوا مهمتهم ثم ينامون. يكفي أن أراهم وقوفا خلف الستار الأسود، بحيث يكون أسود منيرا اذا صح التعبير، يلقي بظل مظلم، ظل واحد، لأنهم يلتصقون ببعضهم حتى يبدو كأنهم جسد واحد، ولكن حين يتمايلون يتضح أنهما اثنان، يتشبثان عبثا بحيوية اليأس، من الواضح ان لدينا جسمين منفصلين واضحين، كل مغلق على حدوده الخاصة ولا حاجة له بالآخر في المجيء والذهاب واطلاق لهب الحياة، فكل قادر أن يفعل ذلك دون الآخر، ربما يشعران بالبرد فيحتكان ببعضهما بهذه الطريقة، فالاحتكاك يولد الحرارة وينعشها حين تخبو. كل هذا جميل وغريب، لكن هذا الشكل الكبير المعقد ليس اثنين، ربما ثلاثة يتمايلون ويترنحون مع فقر في اللون. لابد أن الليلة دافئة، فقد أشرقت الستارة فجأة بتوهج رقيق أزرق فاتح ولحم أبيض، ثم لون وردي لابد أنه لثوب ذهبي لم يكن لدي وقت لأفهمه، هي ليست بردانة إذن، وهي تقف بخفة متغطية بالنافذة المفتوحة. كم أنا غبي. فهمت الأمر، إنهما يمارسان الحب، ذلك هو سبب ما يحدث، ذلك يبعث فيّ الرضا، سأنظر إلى السماء لأرى أنها مازالت هناك، ثم أمضي. إنها هناك في مواجهة الستارة ساكنة، أتكون قد أنهت عملها،

أحبا بعضهما وقوفا كالكلاب، سينفصلان حالا، أو ربما يلتقطان الأنفاس، قبل أن يتناولا اللقمة السائغة، إلى الخلف فالأمام، إلى الخلف إلى الأمام، ذلك رائع، يبدو أنهما يتألمان. ذلك يكفى، وداعا.

★★★

وقد أمسك به المطر بعيدا عن أى ملجأ، توقف «ماكمان» قائلا: سيظل السطح المواجه للأرض جافا، بينما لو ظللت واقفا لابتل الجسد كله، كما لو أن المطر معدل قطرات فى الساعة، مثل الكهرباء، وهكذا استلقى منبطحا بعد تردد للحظة، لأنه بالبساطة نفسها كان يستطيع أن يستلقى بكسل على أحد جنبيه، لكنه تخيل أن مؤخر العنق، والظهر حتى الخاصرة أكثر سرعة فى التأثر من الصدر والبطن، دون أن يدرك، وكأنه قفص طماطم، بأن كل هذه الأجزاء مترابطة بحميمية دون انفصال، على الأقل حتى يفصلها الموت وأشياء أخرى لايدركها تصوره، وأن نقطة من الماء فى غير أوانها على العصعص مثلا، قد تقود إلى تشنجات فى العضلة الضاحكة تستمر عدة سنوات، ولو خضت فى مستنقع فإنك تموت بذات الرئة مع أن ساقيك هما المبتلتان، ولو حدث ما هو أفضل فالبركة فى مياه المستنقع.

كان مطرا غزيرا باردا عموديا مما دعا «ماكمان» للافتراض بأنه لن يستمر طويلا، كما لو أن هناك علاقة بين العنف والغزارة والاستمرارية، وأنه سيقفز على قدميه خلال عشر دقائق أو ربع ساعة، مقدم جسده، لا، ظهره، الامام أكثر صوابا، او مقدمة جسده، ابيضت من الغبار. هذه هى نوعية القصص التى كان يحكيها لنفسه طوال حياته، قائلا: لن يستمر هذا طويلا. أحيانا، فيما بعد الظهر، وهو غير قادر على قول شىء أكثر، تمر ساعات وساعات والضوء الرصاصى ذاته، لذا من المحتمل أن يكون الوقت بعد الظهر، احتمال كبير، الهواء ساكن، ومع ذلك ليس باردا كما فى الشتاء، لكن بدا بلا وعد أو ذاكرة بالدفء، متعب من المطر المنصب فى قبعته عن طريق الشق، خلعها ووضعها على صدغه، بمعنى أنه أدار

رأسه وضغط خده على الأرض، تشبثت يداه فى طرفى ذراعيه الطويلتين الممتدتين، بالأعشاب بحيوية وفى كل يد خصلة كأنه صقر فاردا جناحيه على جانب صخرة، دعنا نواصل هذا الوصف، ضربه المطر على ظهره بصوت كالطبل أولا، ثم بعد وقت قصير من الاغتسال، بدأ الماء يتخلله مثل بقبقة دخوله فى أنبوب، وقد ميز بوضوح واهتمام، الاختلاف بين ضجة المطر الساقط فوقه، وذلك الساقط فوق الأرض. أذنه التى فى مستوى الخد أو تقريبا كذلك، كانت ملتصقة بالأرض بطريقة تبعدها عن الطقس المبتل، واستطاع أن يسمع نوع الزئير البعيد للتربة وهى تشرب، وتنهد الأعشاب المنحنية المبتلة. وخطرت بباله فكرة العقاب، مرتبطة بالحقيقة لا بالوهم، وربما تأثر بوضع الجسد والأصابع المتشبثة بالأرض، كأنه فى عذاب، ودون أن يعرف بالضبط ماذا كانت خطيئته، فقد شعر باقتناع كامل بأن الحياة ليست تكفيرا عنها، أو أن هذا التكفير (الحياة) هى فى ذاتها خطيئة تستدعى تكفيرا أكبر، وهكذا كأنه يوجد شىء آخر سوى الحياة يعيشها المرء، وسيتساءل بلا شك أمن الضرورى أن يكون المرء مذنبا كى يعاقب، فهو يذكر بحقد متزايد، قبوله أن يعيش فى بطن أمه، ثم بتركه بعد ذلك، ولا يرى فى ذلك خطيئته الحقيقية، ولكن تكفيرا آخر أجهض، لم يطهره من خطيئته بل غمسه فيها بدرجة أكبر، والحق أقول إن فكرة الذنب والعقاب اختلطت فى ذهنه كاختلاط فكرة السبب والنتيجة أو العلة والمعلول فى أذهان أولئك الذين يستمرون فى التفكير. وكان غالبا فى خوف ورعدة من أن يقاسى، قائلا: سيكلفنى ذلك الكثير، ولأنه لا يعرف كيف يعالج الأمر، كيف يفكر أو يشعر بشكل صحيح، فهو يبدأ فى الابتسام فجأة وبلا سبب، كما يحدث الآن، أقصد آنذاك، فقد مضى وقت طويل على بعد ظهيرة ذلك اليوم، ربما فى مارس أو نوفمبر، أو بالأحرى أكتوبر، حين أمسك به المطر بعيدا عن أى مأوى، يبتسم ويقدم الشكر للمطر المنهمر، منتظرا الوعد بأن تسطع النجوم وتضىء طريقه ليتمكن من الحصول على أمتعته، أينبغى

أن يفعل ذلك؟ إنه لايعرف تماما أين هو، عدا أنه فى سهل، والجبال غير بعيدة ولا البحر ولا البلدة، وكل ما يحتاجه شعاع من ضوء وبضعة نجوم ثابتة، ليتمكن من شق طريقه بشكل محدد تجاه الأولى أو الثانى أو الثالثة، أو يتمسك بموقعه حيث هو فى السهل وذلك يسعده، لكن ذلك يحتاج إلى ضوء أيضا، لأنه اما انك تسير فى دوائر.. وذلك، عمليا، مستحيل فى الظلام، أو تتوقف وتنتظر بلا حركة حتى بزوغ الفجر ثانية، ومن ثم تموت من البرد، إلا إذا كان الجو ليس باردا، لابد أن ماكمان كان أكثر من بشر، فبعد أربعين أو خمس وأربعين دقيقة من التوقع المتفائل، والمطر مصر على الانهمار بالغزارة نفسها، والنهار يتراجع، بدأ فى لوم نفسه على مافعله، بمعنى استلقائه على الأرض بدلا من أن يسير فى طريقه بخط مستقيم قدر الإمكان، علّه يصادف، عاجلا أو آجلا، شجرة او خرابة، وبدلا من أن يندهش من هذا المطر العنيف الذى استمر طويلا، كان الأحرى أن يندهش من عدم فهمه منذ اللحظة الأولى التى سقطت فيها أول قطرة خجلة، إنها ستمطر بعنف وغزارة مدة طويلة، وإنه ما كان عليه أن يتوقف ثم يستلقى بل يتقدم منطلقا بقدر ما تسرع قدماه، لأنه بشر ابن بشر من ظهر بشر، لكن بينه وبين أولئك الرجال الحكماء الذين غيبهم الثرى، أصحاب اللحى والشوارب، كان اختلاف، فمنيه لم يسبب ضررا لأحد، وكل علاقته بأسلافه أنهم أنجبوه، وكلهم ماتوا، على أمل حنون بأنهم خلدوا أنفسهم، لكن خلفا ما أفضل من عدم الخلف، والتأخير خير من عدم الحضور، ومعرفة الخطأ واصلاحه من شيمة الرجال الصادقين، لكن ذلك كان فوق قدرة «ماكمان» الذى بدا له أحيانا أنه يستطيع أن ينغمس فى حياته الفانية حتى آخر لحظة، ولم يفعل. ودون أن نذهب بعيدا، فإن من انتظر طويلا، يمكنه أن ينتظر إلى الأبد، حتى تأتى الساعة التى لايحدث فيها شىء، ولا أحد يستطيع القدوم، وكل شىء، قد انتهى إلا الانتظار العبثى، ربما وصل إلى تلك النتيجة. وحين يموت المرء مثلا، يكون الوقت قد فات، وانتظر طويلا جدا، ولم يعد

حيا بما يكفى كى يتوقف، ربما عرف ذلك. لكن من الواضح أنه لم يعرف، لذا فالأفعال لا تهم، أعرف، ولا الأفكار أيضا.

ولأنه يلوم نفسه على ما فعله، ومع غلطته الهائلة فى التقدير، فقد انقلب على ظهره بدلا من أن يقفز ويسرع، معرضا كل ظاهره الى المطر الغامر، فظهر شعره بوضوح لأول مرة منذ سيره عارى الرأس متلكئا مبتسما فى شبابه، وظلت قبعته فى المكان الذى تركها فيه رأسه، فأنت حين تكون مستلقيا على بطنك فى منطقة برية مظلمة من الريف، ثم تنقلب على ظهرك، تحدث حركات جانبية لكل الجسد بما فيه الرأس إلا إذا حاولت تجنب ذلك، ويستريح الرأس على مسافة بوصات تقريبا من وضعه السابق، هذه المسافة هى عرض الكتفين، فهو فى منتصفها تماما، اما اذا كنت فى سرير ضيق، أعنى يتسع لك فقط، نقالة مثلا، فمن العبث أن تنقلب على ظهرك، ثم تنقلب على بطنك ويتغير موضع رأسك، إلا إذا قصدت أن تحنيه الى اليمين أو اليسار، وقليلون هم الذين يقومون بهذه المغامرة على أمل أن يجدوا قليلا من التغيير والتجديد.

حاول أن ينظر الى التيار الغزير الأسود الذى بقى من السماء والهواء، إلا أن المطر آلم عينيه، فأغلقهما، فتح فمه واستلقى فترة طويلة على هذا الوضع. فم مفتوح وذراعان ممتدتان على أخرهما، شىء عجيب، فالمرء يميل بدرجة أقل للتشبث بالأرض وهو على ظهره منه حين يكون على بطنه. وهناك ملاحظة غريبة تستحق أن نتابعها، فقبل ساعة بالضبط، شمرّ كميه ليتشبث بالعشب بطريقة أفضل، والآن يشمرهما ثانية ليشعر بالمطر يرشق راحتيه وساعديه وخلال ذلك لقد كدت أنسى الشعر، بالنسبة إلى اللون فهو إلى البياض أقرب، بينما الظلمة إلى السواد أقرب، وبالنسبة لطوله فهو طويل جدا، وأكثر طولا فى الخلف والجانبين، وفى يوم جاف وعاصف يتطاير ويتناثر على العشب، تقريبا كالعشب ذاته، لكن المطر هنا ألصقه بالأرض وخلطه بالتراب والحشائش فى نوع من العجينة

الوحلية، ليست عجينة وحلية، ولكن نوعا منها. وخلال معاناته، فالمرء لايمكث طويلا فى هذا الوضع دون أن يتعب، بدأ يتمنى ألا يتوقف المطر وبالتالى آلامه ومعاناته، فسبب ألمه كان المطر بالتأكيد، فالاضطجاع ليس مؤلما فى حد ذاته، وكأن هناك علاقة تنشأ بين من يقاسى وبين مسبب الألم، فقد يتوقف المطر ولا تتوقف آلامه، بالضبط كما يمكن أن تتوقف معاناته دون أن يتوقف المطر. وبناء على ذلك، بدأت تبزغ عليه ربع الحقيقة المهمة هذه، فهو لايستطيع أن يقضى بقية حياته (التى اختصرت الآن) يرثى لنفسه تحت المطر البارد الغزير العمودى (ليس ثلجيا)، منبطحا كسولا، يميل ربع ميل الى التساؤل اذا لم يكن مخطئا فى اعتبار المطر مسئولا عن آلامه، وأن هناك سببا أو أسبابا أخرى مختلفة تماما، فلا أحد يرضى بالألم، لكن لابد للناس أن تسخن وتبرد، تتعرض للمطر وعكسه أى الجو المعتدل، أن تحب وتصادق، أن ترتكب الخطيئة السوداء، وتصاب بالقصور الجنسى والهضمى، باختصار هيجان وجنون الجسد الذى لايمكن عده لحسن الحظ، بما فيه الجمجمة وملحقاتها، مهما عنى ذلك، كالقدم الحنفاء مثلا، كى تعرف بالضبط – أى الناس – باختصار شديد ذلك الذى يجرؤ أن يمنع سعادتهم من أن تكون خالصة. والشكليون المتمسكون بالمظاهر يواجههم الذين لايهدأون إلا إذا عرفوا هل الورم السرطانى فى فم المعدة أو على العكس فى الناحية الأخرى فى الاثنى عشر، لكن هذه تحليقات لم ينبت ريش «ماكمان» بعد ليقوم بها. فهو مازال أرضيا بحتا وغير مناسب للعقل الخالص، خاصة فى الظروف التى كنا محظوظين بدرجة كافية لنحيطه بها. والحقيقة أن مزاجه كان إلى الزواحف أقرب منه للطيور، ويمكنه أن يقاسى تشويها كبيرا ويعيش، وهو أكثر سعادة جالسا مما هو قائما، ومستلقيا أكثر منه جالسا، لذا فهو يستلقى لأوهى عذر، ولاينهض إلا إذا بدأ الكفاح من أجل الحياة ينخسه فى مؤخرته، نصف حياته قضاها بلا حركة كحجر، ولا أقول ثلاثة أرباع أو أربعة أخماس، سكون عميق فى الجسد، يغزو رويدا

رويدا، لا أقول الأجزاء الحيوية، ولكن على الأقل الحساسية والفهم. ولابد أن نعترف أنه تلقى عن أسلافه العديدين بواسطة أمه وأبيه نظاما نباتيا شديدا، حتى يصل الى العمر الذى وصل اليه، والذى يعتبر لا شيء، أو قليل جدا، إذا قورن بالعمر الذى سيصله، أقول ذلك على مسئوليتى الخاصة، إلا إذا أصابه حظ عاثر وفاز به، فلا أحد يساعده او ساعده فى تجنب الأشواك والافخاخ التى تصاحب خطوات البراءة، وهو لايستطيع أن يعتمد على أية حرفة، سوى حرفته، ولا قوة تعينه أن يذهب من الصباح الى المساء، ثم من المساء الى الصباح، دون ألم مميت. ومن الملاحظ أنه لم يتلق أى منح نقدية، أو نادرا جدا، وهى مبالغ بسيطة غير ذات قيمة فيما لو كان يستطيع الكسب من عرق جبينه او باستخدام ذكائه، فهو حين يعطى عملا ما، كجمع كمية من الجزر مثلا، بأجرة ثلاثة بنسات أو حتى ستة بنسات فى الساعة، فغالبا ما يفسدها بالتقطيع من خلال سرحانه أو يلقى بها بعيدا لسبب غير معروف أو ربما بدافع لايقاوم، يسيطر عليه عند مرأى الخضراوات أو حتى الزهور، ويعميه بالمعنى الحرفى عن عمله الحقيقى، دافع إلى كنس كل شيء، بحيث لايترك أمام عينيه سوى قطعة أرض بنية خالية تماما من الطفيليات، وهو أمر لايستطيع مقاومته، فكل شيء يعوم فجأة أما عينيه، ولايعود يميز بين النباتات المطلوبة لتزيين البيت أو غذاء الإنسان والحيوان وبين الأعشاب التى يقال انها لا تخدم اى غرض مفيد، وان كانت لها فائدة للأرض، كالعظم الذى تحبه الكلاب، أو الخميرة التى نجح الانسان فى استخراجها منها، وسقطت العزاقة من يده، وحتى مثل هذه الأعمال المتواضعة مثل كنس الشوارع، التى لجأ اليها أملا فى النجاح لكونه بالمصادفة ابن زبال، لا ينجح فيها بشكل أفضل، وكان يضطر للاعتراف بأن المكان الذى يكنسه يبدو أكثر قذارة عند تركه له، مما كان عند وصوله إليه، كما لو أن الشيطان قد دفعه أن يجمع بالمكنسة والمجرفة وعربة اليد - المصروفة له مجانا من المؤسسة - كل القذارة والفضلات التى أخفتها

المصادفة عن عينى دافع الضرائب، ليكومها فوق الزبالة الموجودة فى الأصل، التى كلف بإزالتها، والنتيجة فى آخر النهار، يمكن للمرء أن يرى فى القطاع الخاص به قشور البرتقال والموز وأعقاب السجائر، وقطعا من الورق لايمكن الحديث عنها، ومخلفات قطط وكلاب وحيوانات أخرى، مكومة بعناية على جانب الطريق او مبعثرة وسط الشارع لتبعث فى المارة أكبر قدر من الغثيان، أو تتسبب فى أكبر عدد من الحوادث بعضها مميت عن طريق الزحلقة، ومع ذلك فهو قد بذل كل جهده المخلص ليقنع الآخرين، متمثلا زملاءه والخبراء فى هذا الأمر، فاعلا ما يفعلون، لكن فى الحقيقة يبدو وكأنه لايستطيع التحكم فى حركاته، ولايعرف ماذا يفعل وهو يفعله، ولا ما فعله بعد أن ينتهى من فعله، ولو أن شخصا ما قال له أنظر ما فعلت، وغرس أنفه فيها، فلن يدرك ما فعله، ويظن أنه عمل ما يمكن أن يعمله أى رجل ذى نية طيبة فى مكانه وسيخرج بالنتائج ذاتها على الرغم من قلة خبرته، ومع ذلك، حين يأتى الأمر للقيام ببعض الأشياء البسيطة لنفسه، مثلا إذا أراد أن يصلح أو يستبدل زرا أو مشجبا مما لاتعمر طويلا، لكونها من خشب سيىء ومعرضة لصرامة العوامل الجوية، فهو يظهر بعض البراعة دون الاستعانة بأية أداة سوى يديه العاريتين، ولقد كرس فى الواقع، جزءا كبيرا من حياته الى هذه الأشياء الصغيرة، بمعنى أن نصف أو ربع وجوده قد ارتبط بحركات من جسده منسقة بشكل أو بآخر، فإذا رغب فى المجىء والذهاب على الأرض، والحقيقة انه لا يرغب فى ذلك لكنه مضطر لأسباب غامضة يعلمها الله وحده، مع أن الله لا يحتاج لأسباب ليفعل ما يفعل، او يلغى ما يلغى، مثل مخلوقاته، أليس كذلك؟ فهو، أى «ماكمان» من وجهة نظر معينة غير قادر على إعداد حوض من زهرة الثالوث أو الأقحوان تاركا زهرة قائمة، وفى الوقت ذاته يستطيع جيدا أن يدعم حذاءه الطويل بلحاء الصفصاف وبقايا الفتائل، حتى يمكنه المجىء والذهاب من وقت لآخر دون أن يجرح نفسه بالأحجار والأشواك والزجاج المكسور الناتج عن كسل

الانسان او شقاوته، ودون تذمر، فهو غير قادر على رفع قدميه واختيار المكان الذى يضعهما فيه (وإلا لسار حافى القدمين)، وحتى لو استطاع فهى مقدرة عبثية لأن سيطرته على حركاته ضئيلة، وما الفائدة فى اتجاهه الى الأماكن الهادئة ذات المستنقعات الطحلبية، حين تفقد القدم خطوتها وتدوس على الصوان وشقف الفخار، أو تغوص حتى الركبة فى حشايا مرعبة، ولكن لنمضى الآن الى دروس ذات نظام مختلف، فليس من غير المناسب أن نتمنى لماكمان، حيث الأمانى لا تكلف شيئا، أن يصاب بشلل عام عاجلا أو آجلا، باستثناء الذراعين، اذا كان ذلك منطقيا، فى مكان لاتخترقه الرياح بقدر الإمكان، ولا المطر او الأصوات أو البرد أو الحرارة العالية (كما فى القرن السابع) او ضوء النهار، مع بطة أو بطتين من بط الريش، فلربما، وروح خيرة تتحمل ولو مرة فى الأسبوع أكل التفاح والسردين بالزيت لتأجيل ساعة النهاية قدر الإمكان، لكن فى الوقت نفسه، مازال المطر ينهمر بكامل قواه، وعلى الرغم من أنه انقلب على ظهره، فقد بدأ القلق يغزوه، يتمرّغ من جانب الى جانب كمن أصابته الحمى، يزرر نفسه ويفك الأزرار، وأخيرا بدأ يتدحرج فى اتجاه واحد، ولا يهم أى اتجاه، يتوقف قليلا بعد كل دحرجة يبدأها ثم يواصل بلا توقف، نظريا، يجب أن تتبعه قبعته وقد ربطت إلى معطفه والخيط التف حول رقبته، لكن بلا فائدة، فالنظرية شىء، والواقع شىء آخر. وبقيت القبعة فى مكانها كشىء منبوذ، ربما تهب يوما ما رياح قوية، فترسلها ثانية جافة ونظيفة، تنطلق وتصطدم بالسهل حتى تصل المدينة او المحيط، لكن ذلك ليس بالضرورة. وهذه ليست أول مرة يتدحرج فيها «ماكمان» على الأرض، فقد فعل ذلك دوما ودون تراجع، وأثناء ابتعاده عن المكان الذى أمسكه فيه المطر، بعيدا عن المأوى، والشكر للقبعة التى بقيت متناقضة مع الفراغ المحيط، أدرك أنه يتقدم بانتظام بل وسرعة معينة على شكل قوس دائرى عملاق، وافترض أن أحد طرفيه أثقل من الآخر، دون أن يعرف أيهما، ليس أثقل كثيرا، وهو

يتدحرج برقت فى ذهنه فكرة الاستمرار فى الدحرجة طوال الليل اذا كان ذلك ضروريا، او على الأقل حتى تخونه قواه، وهكذا يصل الى تخوم هذا السهل، الذى وللحقيقة لم يكن فى عجلة لمغادرته، ومع ذلك فهو يغادره ويعرف ذلك، ودون أن يخفف سرعته بدأ يحلم بأرض منبسطة، حيث يستطيع ألا ينهض ابدا، او يتماسك منتصبا بشكل متوازن، اولا على القدم اليمنى مثلا، ثم على اليسرى، بل يذهب ويجىء ويعيش على نمط اسطوانة كبيرة منحت الإدراك والإرادة، ودون أن يبنى حصونا فى اسبانيا من أجل ذلك.

★★★

بسرعة، بسرعة ياممتلكاتى، مطمئن البال، مطمئن البال مرتين، فلدى الوقت، كثير من الوقت، قلم الرصاص، قلمان، ذلك الذى لم يبق منه شىء بين أصابعى الكبيرة، ووقعت رصاصته من الخشب، والثانى، طويل مستدير، فى مكان ما من السرير، كنت احتفظ به احتياطيا، لن أبحث عنه، أعرف انه فى مكان ماهناك، اذا كان لدى وقت حين انتهى فسأبحث عنه، فإذا لم أجده، فلن يكون معى، وسأقوم بالتصحيح بالقلم الآخر، إذا بقى منه شىء، مهلا مهلا ياكراستى، لا أراها، لكنى أحسها بيدى اليسرى . لم أكن أملكها حين أتيت إلى هنا، لا أعرف من أين جاءت، أشعر أنها لى ، ذلك هو الترف كأنى شخص حلو فى السبعين ، وفى تلك الحالة، يكون السرير ملكى أيضا، والطاولة الصغيرة والطبق والمواعين والدولاب والبطانيات ، لا، لاشىء من ذلك لى، لكن الكراسة لى ، ولا أستطيع تفسير ذلك، ثم القلمان ، والعصا التى لم تكن معى أيضا حين قدمت إلى هنا، ومع ذلك أعتبرها لى، كان لابد أن أصفها منذ زمن طويل، أنا مطمئن فلدى الوقت، وسأصفها بأقل القليل، إنها معى فى السرير تحت البطاطين. جاء وقت كنت أحك نفسى بها قائلا إنها امرأة صغيرة . لكن مضى وقت طويل منذ استقرت تحت المخدة وانتهت بعيدا عنى . اواصل من الذاكرة ، لونها أسود غامق . أرى النافذة

بصـعـوبة ، تتـرك الليل يتـوغل منهـا ثانيـة، حـتى لو كـان لدىّ الوقت لأنقب فى ممتلكاتى، وأحضرها فوق السرير واحدة واحدة أو متشابكة كما يحدث غالبا مع الاشيـاء المهجورة ، فلن أرى شيئا . لدى وقت فى الواقع ، أو لنفترض ان لدى الوقت، أولا واصل كمـا لو أننى لا أملك الوقت. لم يمض وقت طويل منذ راجـعت وفتشت اشيائى فى الضوء توقعا لمثل هذه الساعة. مضى وقت ولابد أننى نسيت كل شىء عنهـا . إبرة مـغـروزة فى فلينتين تمنعـانهـا من أن تشكنى أو تدخل جسمى، لأنه اذا كـان الرأس المدبب يشك أقل من عين الابرة، لا ، ذلك خطأ ، اذا كان الرأس المدبب يشك أكثر من عين الابرة، فعين الابرة تشك أيضـا، ذلك خطأ ، حول الساق ، بين الفلينتين ، توجد لفة صغيرة من الخيط، شىء صـغير جميل، يشبه ، لا ، لايشبه شيئا . طاسة غليونى، مع أننى لم أستخدم غليونا قط ، لابد أنى وجدتها فى مكان ما على الارض حين كنت أتمشى . كانت هناك على العشب ملقاة لأنها لم تعد صالحة، ذراع الغليون قد كسرت ، تذكرت ذلك فجأة من عند الطاسة ، من الممكن اصلاحه ، لابد أن صاحبه قال «سأشترى غليونا آخر» ، كل ما وجدته الطاسة . كل هذه افتراضات وفكرت بذلك جيدا ، وشعرت بذلك الشعور الكريه من الشفـقـة الذى ينتـابنى غـالبـا فى حـضـور الاشـيـاء ، خـاصـة الاشيـاء الصـغـيـرة التى يمكن حـملهـا من الخـشب أو الحـجـارة ، مما أرغب فى أن تكون حولى واحـتفظ بها دائما ، لذا أنحنى وألتقطها وأضعهـا فى جيبى والدموع فى عينى غالبا ، لأنى بلغت أرذل العمر دون أن أندمج فعليا بميادين الحب والوجدان على الرغم من تجاربى، إلا بصـحبة هذه الاشياء الصغيرة التى التقطها من هنا وهناك وأنا أتمشى ، وتعطينى الانطباع أحيانا بأنها تحتاجنى . لابد أننى تحولت عن مجتمع الناس الظرفاء ، أو التعزى بأحد الاديان أو ما شابه ، لكنى لا أعتقد ذلك . لقد أحـببت ، وأنا أتمشى ويداى فى جـيـبى ، أتكلم عن الوقت الذى كـان بإمكانى المشى دون عصا أو بالأحرى دو عكاز ، أحببت أن ألمس وأربت بأصابعى

على الاشياء الصلبة الحادة التى فى أعماق جيبى، إنها طريقتى فى الحديث إليها وطمأنتها، وأحببت أن أنام ممسكا بيدى حجرا أو كستناة برية أو كوزا مخروطيا، وأكون حين استيقظ مازلت ممسكا به ، وأصابعى مغلقة عليه، على الرغم من أن النوم يجعل الجسد كالخرقة حتى يستريح. أما الاشياء التى أضجر منها، او حل محلها حب آخر، أرميها فى مكان تكون فيه فى سلام إلى الأبد، بحيث لايجدها أحد إلا بالمصادفة ، ومثل تلك الأماكن قليلة ومتباعدة، أضعها هناك، أو أدفنها أو ألقيها فى البحر بكل قوتى إلى أبعد ما يمكن عن الارض ، ذلك مع الاشياء التى أعرف جيدا بأنها لن تطفو ولو بشكل بسيط، لكن كثيرا من الاصدقاء الخشب أرسلتهم إلى القاع بثقل من الحجر ، حتى أدركت غلطتى ، فحين يذوب الخيط ستصعد إلى السطح ، اذا لم تكن قد فعلت ذلك وعادت إلى الارض . بهذه الطريقة تخلصت من الاشياء التى أحببتها ولم أرغب فى الاحتفاظ بها فترة أطول بسبب حب جديد، وغالبا ما أفقدها لأنى أخفيتها بطريقة لا أستطيع أن أجدها فيها ثانية . ذلك هو اسلوبى، كما لو أن لدى وقتا للقتل . وأنا بالفعل لدى هناك فى العمق وأعرف ذلك جيدا . لماذا ألعب وأنا فى عجلة من أمرى؟ لا أعرف ، وهل أنا فى عجلة ؟ إنه انطباع جاءنى منذ وقت قصير . لكن انطباعاتى .. وماذا لو لم أكن قلقا لهذه الدرجة وأنا أكتب لأعيد إلى الذاكرة ما تبقى لى من كل ما أملكه؟ دستة من الاشياء الجيدة على الأقل فى المتوسط . لا لابد . هناك شيء آخر ، أين نحن؟ طاستى .. لم أتخلص منها قط ، استخدمتها ككأس احتفظ فيها بالاشياء ، اتساءل ترى ما الذى احتفظت به فى مكان صغير كهذا ، وقد صنعت له غطاءً صغيرا من الصفيح .

وبعد ، مسكين «ماكمان» ، لم يتح لى بلاريب أن أنهى شيئا عدا التنفس ، على المرء ألا يكون طماعا . أهذه هى الطريقة التى يختنق بها المرء؟ . ربما . ماذا عن الخشخة؟ ربما ليست أمرا حتميا فى النهاية ، ان تستهل الحياة الأخرى دون

خشخشة ، كيف تقهر الحياة قوة الاحتجاج ، اتساءل عما ستكون عليه كلماتى الأخيرة ، لابد أن تكون مكتوبة، فالأخرى لا يمكن تحملها وهى تختفى فى الهواء الرقيق، لن أعرف ابدا ولن أنهى هذه المشكلة أيضا، طائر صغير أخبرني بذلك، ربما الروح القدس ، او الطائر المعزّى يشبه الببغاء فى اسمه . فليكن . فى حالتى سيكون الضرب بهراوة ، لن استطيع تحملها ، لا بد من تسجيل الحقائق ، دون محاولة الفهم حتى النهاية . هناك لحظات أشعر فيها أنى كنت هنا دائما، بل حتى ولدت هنا ، ثم كرت الايام ، ذلك قد يفسر أشياء كثيرة . أو أننى عدت بعد غيبة طويلة، لكنى أنهكت من المشاعر والفرضيات . هذه الهراوة لى وهذا كل شيء عنها.

إنها ملطخة بالدماء . ذلك لا يكفى . لقد دافعت عن نفسى بشكل سيىء ، لكن دافعت. ذلك ما أحكيه لنفسى أحيانا . إحدى فردتى الحذاء الطويل، أصفر فى الاصل ، نسيت لأى قدم ، الفردة الأخرى ، زميلتها ، ذهبت، أخذوها من البداية قبل أن يدركوا بأنى لن أسير ثانية، تركوا الأخرى ، على أمل أن أحزن لرؤيتها دون أختها ، كذلك هم الناس ، او ربما موجودة على ظهر الدولاب . بحثت عنها بعصاي فى كل مكان ، ولم أفكر بسطح الدولاب حتى الآن.

وحيث إنى لن أبحث عنها أو عن أى شيء آخر ، سواء على سطح الدولاب أو فى أى مكان آخر، فإنها لم تعد لى ، لأن ما هو لى هو ما أستطيع وضع يدى عليه جيدا اذا لزم الأمر ، ذلك هو التعريف الذى استخلصته لتحديد ممتلكاتى، وإلا فلن ينتهى الأمر ، وعلى أية حال فلن يكون له نهاية . قد لا تشبه بشكل كبير تلك التى احتفظ بها - من الخطأ أن أعول على ذلك - بالنظر إلى عدد ثقوب الرباط ، لم أر حذاء بمثل هذا العدد من الثقوب ، ومعظمها ليس له فائدة ، خاصة وقد توقفت عن أن تكون ثقوبا بل شقوقا طولية ، كل هذه الأشياء مكومة فى ركن ، يمكن أن أضع يدى عليها ، حتى فى الظلام ، فقط على أن أرغب فى ذلك.

ويمكننى أن أتعرف عليها باللمس ، وستنساب الرسالة عبر العصا ، ويمكن أن أعلق الشىء المطلوب وأحضره إلى السرير ، اسمعه وهو يعبر أرضية الغرفة فى اتجاهى ، منزلقا، مهتزا ، أرفعه بطريقة لا تتسبب فى كسر زجاج النافذة أو تضر بالسقف ، وأخيرا يكون بين يدى ، اذا كانت قبعتى سأضعها فوق رأسى لتذكرنى بالأيام الجميلة الماضية، مع أننى أتذكرها بشكل كاف ، لقد فقدت إطارها، فأصبحت تشبه طاسة جرس موضوعة فوق شمامة ، لكى تلبسها وتخلعها عليك بإمساكها ككرة كبيرة بين راحتيك، ربما هى الشىء الوحيد من ممتلكاتى التى لم أنس تاريخها ، بمعنى منذ أن أصبحت ملكى، وأعرف فى أية ظروف فقدت حافتها ، كنت هناك آنذاك، وأردت أن أحافظ عليها على رأسى وأنا نائم . أفضل أن تدفن معى، رغبة غير ضارة ، لكن ما هى الخطوات التى ينبغى اتخاذها؟ نترك ذلك للأمل لعل وعسى ، فلأثبتها على الرأس قبل فوات الأوان ، ولكل شىء وقته المناسب . أتساءل هل استمر ؟ أشعر أنى ربما أنسب إلى نفسى أشياء لم أعد امتلكها ، وأقرر أن بعضها ضائع وهى ليست كذلك . وأشعر أن هناك فى الركن أشياء تنتمى إلى مقولة ثالثة ، تلك التى لا أعرف عنها شيئا مع الأخذ فى الاعتبار خطر أن أكون مخطئا أو مصيبا ، وأذكر نفسى بأنه منذ تفقدت مملتكاتى آخر مرة ، مرت مياه كثير تحت قنطرة «بط BUTT » في كلا الاتجاهين . فقد أفنيت فى هذه الغرفة وقت كافيا لأعرف أن بعض الاشياء تخرج والبعض لا يعود، مع ملاحظة أن بعض من يعود مألوف لدى والبعض غير مألوف، ولا أفهم ذلك . والأمر الغريب أن هناك عائلة كاملة من الاشياء ، وهى قليلة جدا ، لم تغادرنى قط منذ كنت هنا ، وبقيت فى مكانها فى الركن كأنها فى غرفة عادية غير مأهولة، أو تكون حية جدا ، كم يبدو كل ذلك زائفا ، ليس هناك ضمان بأن تظل الاشياء على هذا الشكل دائما . لا توجد طريقة يعول عليها فى معرفة مظاهر تغير ممتلكاتى ، ولذا ، أقول بدقة ، من المستحيل أن أعرف، ما هو لى وما هو ليس لى بين أية لحظة وأخرى حسب التعريف الذى قدمته . وأتساءل

هل ينبغى أن أواصل؟ أعنى مواصلة رسم تواصل مبدع بيننا له علاقة ضعيفة بالحقائق؟ أو لا أستمر وأختصر وأكرس نفسى بشكل آخر لقضاء الوقت ذى النتائج الأقل أهمية، أو أنتظر ببساطة دون أن أفعل شيئا ، أو أعد: واحد ، اثنان، ثلاثة .. وهكذا حتى يزول الخطر أخيرا من نفسى على نفسى . تلك نتيجة كون المرء ذا ضمير كثير التدقيق . لو كان معى مليم لجعلته يشغل تفكيرى ، من المؤكد أن الليل طويل وفقير فى المشورة ، ربما يجب أن أثابر واستمر حتى الفجر، كل شىء فى الاعتبار ، فكرة جيدة ، اذا بقيت حتى الفجر سأتخذ قرارا . أنا نصف نائم ولا اجرؤ أن أنام. البعد عن التطرف ممكن دائما فى النهاية . لكن أليس من المحتمل أن أكون قد مت لتوى ؟ مالون . مالون . لم يعد هناك مالون.

ربما ينبغى أن استدعى كل ممتلكاتى وأضعها معى فى السرير . وهل لذلك فائدة ؟ فلنفترض أنه لا فائدة ، لكن يمكننى فعل ذلك . كانت دائما تلك تسليتى، حين يكون هناك ضوء كاف للرؤية، سأضعها كلها حولى ، فوقى ، تحتى ، ولن أترك فى الركن شيئا ، كلها فى السرير معى. أحمل صورتى بيدى، وحجرى باليد الأخري ، حتى لا أفقدهما . وألبس قبعتى ، وربما وضعت شيئا فى فمى ، ربما قصاصة صحيفتى أو أزرارى ، وأكون نائما على كنوز أخرى. صورتى، إنها ليست صورتى ، لكنها فى متناول اليد، صورة حمارة ملتقطة من الأمام وعن قرب على طرف المحيط ، إنه ليس المحيط ، لكنه المحيط بالنسبة لى. حاولوا أن يجعلوها ترفع رأسها لتنطبع عينها الجميلة على شريط التصوير، لكنها خفضته . ويمكن القول من شكل الأذنين إنها لم تكن مسرورة، وضعوا قبعة قش على رأسها، السيقان المتوازية الرفيعة الصلبة، والحوافر الصغيرة الأنيقة ترتكز بخفة على الارض الرملية، الخطوط العامة الخارجية مغبشة ، بسبب اهتزاز الكاميرا من قهقهة المصور ، يبدو المحيط غريبا حتى تظن أنك فى الاستديو أو يجب أن أقول العكس؟ ملابسى ! لا أثر لأية ملابس عدا فردة الحذاء والقبعة وثلاثة

جوارب، عددتها . أين اختفت ملابسى؟ معطفى الكبير ، بنطلوناتى، والفانلة التي أعطانيها السيد كوين مع ملاحظة أنه لا يحتاجها ؟ ربما أحرقت . لكن قضيتنا ليس بما لم أعد أملكه ، فتلك الأشياء لا اعتبار لها الآن ، مهما قال الناس . أظن أنى سأتوقف فى حالتى هذه، بقيت فى أحسن حال إلى النهاية، ولا أشعر أنى فى حالة حسنة ، قد أكون ذاهبا ، وذلك يدهشنى ، إنه ضعف عابر ، كل إنسان جرب ذلك ، يضعف المرء ثم تمر الحالة وتعود إليه قوته ويستأنف . من المحتمل أن هذا ما يحدث لى. أتثاءب ، هل أتثاءب لو كان الأمر خطيرا ؟ لم لا ؟ سأتناول بسرور بعض الحساء إذا بقى شىء منه ، لا ، حتى لو بقى بعضه فلن أتناوله . لقد مرت عدة أيام منذ أحضروا لى حساءً طازجا، هل ذكرت ذلك؟ أفترض . عبثا أدفع طاولتى إلى الباب وأعيدها بقربى ثانية، أحركها ذهابا وإيابا على أمل أن يسمعوا الضجة، ويفسرونها بطريقة صحيحة فى الجهات الصحيحة. الطبق يظل فارغا ، وأحد الأوعية يظل ممتلئا والآخر يمتلىء ببطء ، إذا نجحت فى ملئه فسأفرغهما على الارض ، ليس من المرجح أن أفعل ذلك . وحيث إنى توقفت عن الأكل ، ففضلاتى تقل ، وأخرج أقل . لا يبدو الوعاءان لى، أنا استخدمهما فقط، انهما يتفقان مع التعريف الذى أطلقته على ما هو ملكى ، لكنهما ليسا كذلك . ربما التعريف خاطىء . لكل منهما يدان تبرزان فوق الحافة تواجه احداهما الأخرى، أدخل فيهما عصاى ، وبهذه الطريقة احركهما ، أرفعهما وأضعهما. لا شىء متروك للمصادفة، او إنها مصادفة طيبة ؟ وبالتالى أستطيع أن أقلبهما بسهولة اذا دفعت إلى ذلك، وانتظرت أن يفرغا ما دام الأمر ضروريا .

بعد هذه الملاحظة العابرة عن الوعاءين الخاصين بى، سأتوقف . ممتلكاتى أضعفتنى، وإذا بدأت فى الحديث عنها ثانية ، فسأضعف مرة أخرى ، لأن الأسباب نفسها تؤدى إلى النتائج ذاتها . رغبت فى التحدث عن غطاء جرس الدراجة الذى أملكه، عن النصف الأعلى من عصاى، قد تظن أنها عكاز طفل .

مازلت أستطيع فعل ذلك، ما الذى يمنعنى؟ لا أعرف . لا أستطيع . ربما أموت من الجوع فى النهاية أو بالأحرى من المجاعة ، بعد أن ناضلت طوال حياتى ضد ذلك التهديد . لا أصدق . هناك تأمين على العجائز العاجزين حتى آخر العمر، وحين لا يستطيعون البلع ، يحشر شخص ما أنبوبا فى حلوقهم يصل إلى معيهم، ويملؤه بالطعام اللين الغنى بالفيتامينات حتى لا يتهمون بالقتل. سأموت إذن من العمر الطويل، ببساطة وبشكل صرف، متخما بالأيام كما فى أيام ما قبل الفيضان ، بمعدة ممتلئة ، ربما يظنون أنى ميت، أو ربما هم ميتون، أقول «هم» وربما لا ينبغى قول ذلك . فى البداية ، هل كانت هناك بداية ؟ اعتدت أن أرى امرأة عجوزاً، ثم لفترة من الوقت ، ساعداً أصفر معروقا ، ثم بدا صفراء بلغت أرذل العمر ، لكن على اكثر احتمال لا يوجد هناك سوى موظفى المؤسسة ، إن الصمت أحيانا يجعلك تظن أن الارض غير مسكونة. عليك فقط ألا تسمع شيئا لعدة أيام وأنت فى جحرك ، لا شىء سوى صوت الاشياء، فتبدأ تتخيل نفسك أنك آخر النوع البشرى . ماذا لو بدأت بالصراخ ؟

ليس للفت الانتباه إلى نفسي ، بل ببساطة لأحاول أن أجد اذا كان هناك شخص ما فى الجوار ، لكنى لا أحب الصراخ ، لقد تكلمت ، كل أيامى، بنعومة ، وشققت طريقي بنعومة، كما ينبغى لإنسان ليس لديه ما يقوله ، ولا مكان يذهب إليه ، وبالتالى لا يكسب شيئا من أن يراه أو يسمعه أحد . ولن أذكر إمكانية ألا يكون هناك مخلوق حى فى نطاق مئة ياردة ، وهذه الوفرة من الناس الذين يسير بعضهم فوق رؤوس البعض ، ولا يجرأون على الاقتراب منى . آنذاك قد أصرخ حتى ينشق رأسى دون نتيجة ، ومع ذلك حاولت ، لم أسمع شيئا خارجا عن المألوف ، لا ، أنا أبالغ، سمعت صوت احتراق عميق في القصبة الهوائية كما لو أن شخصا لديه حرقة فى المعدة . بالتجربة سأصدر تأوها قبل أن أموت . لم أعد أحس بالنعاس . على أية حال لا يجب أن أنام فترة أطول . يا له من ملل . لقد

تخطيت حالة الانحطاط . هل قلت إنى تحدثت فقط عن نسبة صغيرة مما يمر برأسي؟ لابد أنى فعلت . أختار تلك التى تبدو قريبة بعض الشىء، ليس ذلك سهلا دائما ، آمل أن تكون الأكثر أهمية ، أتساءل اذا كان مقدرا لى أن أتوقف . ربما ينبغى أن ألقى بفضلة قلم الرصاص بعيدا ، لا يمكننى استعادتها أبدا، قد أندم . رصاصتى الصغيرة . إنها مخاطرة ولا أشعر بالحنين إلى التقاطها الآن . ماذا إذن؟

أتساءل أليس باستطاعتى التحايل لتحريك سريرى مستخدما عصاى كمحور ارتكاز؟

ربما كان على عجلات ، كثير من الأسرة كذلك . شىء لا يصدق أنى لم أفكر بالأمر من قبل . قد أنجح فى توجيهه إلى الممر الضيق عبر الباب ثم على السلالم اذا كانت هناك سلالم تهبط إلى أسفل ، وأنطلق خارجا . الظلام يعمل ضدى بمعنى ما . كل ما يجب عمله ، أن أضغط العصا على الحائط وأدفع ، وقد أرى نفسى اذا نجحت، أدور قليلا فى الغرفة حتى يصبح الضوء كافيا لأرى ، وبينما أقوم بذلك أتوقف، على الأقل ، عن إخبار نفسى بالاكاذيب ، ثم من يعرف ، قد يقتلنى المجهود وأصاب بهبوط فى القلب.

★★★

فقدت عصاى . أهم حادثة لهذا النهار ، لأنه النهار الآن . لم يتحرك السرير، لابد أنى فقدت نقطة الارتكاز فى الظلام . كان أرشميدس على حق - أعطنى رافعة ومكانا مناسبا وأنا أحرك لك العالم - حين انزلقت العصا كادت تنزعنى من السرير لو لم أتركها ، كان ، بالطبع ، أفضل لى أن أهجر سريرى على أن أفقد عصاى. لكن لم يكن لدى وقت لأفكر . الخوف من السقوط هو منبع معظم الحماقات . إنها كارثة. من الحكمة الآن أن أستعيد ما جرى ثانية وأتأمله وأحاول اصلاحه . بهذا تميز الانسان عن القرود وتقدم من اكتشاف لاكتشاف دوما تجاه

النور . الآن وقد فقدت عصاى، أدركت قيمة ما فقدته وما الذى يعنيه لى ، وارتقيت إلى فهم للعصا لم أحلم به، فهم مستخلص من حوادثها، يا لها من سعة أفق . لقد تبينت ، بشكل غائم ، أن الكارثة التى ألمت بى هى نعمة مخفية، وكم كان ذلك مريحا . أن تدفن فى اللاقا دون أن تهتز منك شعرة فذلك يدل على معدن الانسان. كارثة بالمعنى القديم بالشك . وأن تعرف أنك يمكن أن تقوم بأداء أفضل المرة القادمة، دون أن تعرف أنه لن تكون هناك مرة قادمة، وأن هناك نعمة تصاحبك، دون أن تدرك أنها لا توجد . ظننت أنى استفدت من عصاى بأفضل شكل ممكن ، كالقرد يهرش براغيثه بمفتاح تفصه . لكن يتضح لى الآن أنى لو استخدمتها بذكاء أكبر ، لنزلت عن السرير وعدت إليه بمساعدتها ، بدل أن أهلك نفسى بالدحرجة وسحب جسدى على السلالم والأرضية. وكان ذلك سيقدم لى تغييرا بسيطا فى التفسخ الذى أعيشه، كيف لم أفكر بذلك؟ حقيقة أنى لا أرغب فى ترك سريرى ، لكن أيمكن للحكيم ألا يرغب فى شىء لا يدرك امكانيته الحقيقية؟ لا أفهم . أقصد الحكيم . أما أنا؟ فهو النهار ثانية ، أو على الأقل ما أراه يمر هنا . لابد أنى سقطت نائما بعد نوبة قصيرة من الاحباط ، لم تمر بى منذ فترة طويلة . لماذا أحبط وقد أنقذ أحد اللصوص وتلك نسبة مئوية كريمة. أرى العصا على الارض . ليست بعيدة عن السرير يمكنك القول إننى أرى جزءا منها، كما لو أنها فى خط الاستواء أو أحد القطبين . لا ليس تماما . فسأبتدع وسيلة لاسترجاعها ، فأنا ماهر فى ذلك . إذن فإنها لم تضع نهائيا . لم يعد شئ ملكى بفقدها ، حسب تعريفى ، اذا كانت ذاكرتى على صواب ، عدا بالطبع كراستى وقطعة الرصاص الصغيرة والقلم الفرنسى على افتراض أنها موجودة بالفعل . لقد أحسنت بوقف عملية الجرد . كان ذلك تفكيرا جيدا . أشعر بضعف أقل . ربما غذونى وأنا نائم . أرى الوعاء غير الممتلىء ، إنه مفقود بالنسبة لى ، كيف سأقربه ، ربما أضطر أن أفعلها على السرير كما كنت وأنا طفل . على الأقل لن

ـ أصفع . قد تظن أنى استرحت بدون عصاى . أعتقد أنى أعرف كيف أستعيدها . هناك شيء يحدث لى، هل يمنعون عنى الحساء ليساعدوننى على الموت؟ يحكم المرء على الناس بسرعة، لكن لماذا يغذوننى ، إذن، أنا نائم ؟ ليس هناك ما يثبت أنهم يفعلون . ثم إذا رغبوا فى مساعدتى أليس من الأجدى إعطائى شوربة مسمومة بكميات كبيرة ! ربما يخافون من نتائج التشريح ، من الواضح أنهم بعيدو النظر . ذلك يذكرنى بأنه كان لدى ذات يوم زجاجة صغيرة ، لا ورقة عليها، تحتوى على حبوب نسيت اسمها لاكساتفز أو سيداتفز ، تؤخذ لتهدئة الأعصاب ، ولم أجن منها سوى الاسهال ، يا الهى .. كم هو مزعج ، على كل حال ، لا أحتاجها الآن ، فأنا هادىء وإن بشكل غير كاف، أحتاج بعض الهدوء. يكفى ذلك عنى. سأتمعن فكرتى الصغيرة، أعنى كيفية استعادة عصاى. الواقع أنى ضعيف جدا، إذا كان عندى بعض القوة، سأحاول أن انزل من السرير كبداية، وإذا لم أستطع فلا أعرف ماذا سأفعل. أذهب وأرى كيف تسير أحوال «ماكمان» فلدى دائما تلك التسلية فما الحاجة إلى هذا النشاط؟ بدأت العصبية تغزونى .

★★★

ذات يوم، بعد ذلك اليوم بوقت طويل، إذا حكمنا على ذلك من مظهره ، وصل «ماكمان» ثانية إلى مستشفى أوبيت للمجانين.. فى البداية لم يعرف أنه كذلك، فقد دس بداخله، لكنه عرف حين أصبح فى حالة تسمح له بسماع الاخبار. قالوا له فى أهمية : أنت الآن فى بيت القديس جون، ورقمك ١٦٦ لا تخف من شيء فأنت وسط أصدقاء ولا تفكر بشيء فنحن نفكر لك ونخدمك من الآن فصاعدا، ونحن نحب ذلك فلا تشكرنا، وبالاضافة الى التغذية المحسوبة بعناية لتبقيك حيا وبصحة جيدة فستتسلم كل يوم سبت، على شرف راعى هذا المكان ، ثمن جالون من البيرة الممتازة وقرصا من التبغ المضغوط، ثم تبع ذلك التعليمات التى تتعلق بواجباته وحقوقه الخاصة، فقد منح بعض الامتيازات ، ومع ذلك انهالت عليه

الهبات، لم يدرك «ماكمان» فى بادىء الأمر أن الحديث موجه اليه، وقد أذهله هذا السيل الجارف من المواطنة وهو الذى كان طوال عمره بعيدا عن الإحسان. كانت الغرفة او الزنزانة التى يستلقى فيها مزدحمة برجال ونساء فى ملابس بيضاء، تجمعوا حول سريره ، ووقف البعض فى الخلف على رؤوس اصابعهم يمدون اعناقهم ليلقوا نظرة افضل عليه. كان المتحدث رجلا فى زهرة حياته، تنطبع على ملامحه الصرامة والاعتدال بنسبة متساوية، له لحية خشنة ضامرة، قصد منها بلا شك ان تقربه من شكل المسيح، ولم يبد عليه أنه يتحدث ارتجالا ، نظرا للورقة التى يمسكها بيده ويلقى عليها نظرة قلقة بين حين وآخر، ناول هذه الورقة الى «ماكمان».. مع قلم مبتور لا ينمحى خطه، بلل رأسه بشفتيه ورجاه أن يوقع مضيفا إنها مجرد شكليات . وحين أطاع «ماكمان».. سواء لخوفه من العقاب إذا رفض ، أو لأنه لم يعرف خطورة ما يفعله ، أخذ الآخر الورقة فحصها وسأل : ماك ماذا ؟ وارتفع آنذاك صوت امرأة مزعج وحاد بطريقة غير طبيعية : مان اسمه ماكمان . كانت المرأة تقف خلف الرجل بحيث لا يراها ممسكة بكل يد قضيبا من قضبان السرير. قال الرجل : من أنت ؟ وأجابه شخص ما : إنها «مول». ألا تدرك أن اسمها مول. التفت الرجل نحو هذا المخبر ، حدق فيه لحظة ثم أبعد عينيه . قال : من المؤكد أننى متوعك. وأضاف بعد فترة صمت: اسم لطيف، دون أن يتضح تماما ما إذا كان هذا الاطراء لاسم مول أو ماكمان. قال بانزعاج : لا تدفعوا بحق المسيح. ثم التفت فجأة صارخا : لماذا تدفعون؟ كانت الغرفة، فى الواقع تزداد إزدحاما تحت تدفق مشاهدين جدد. قال المتحدث : أنا شخصيا سأذهب . فتراجعوا جميعا فى فوضى وتدافع . كل يناضل ليكون أول الخارجين، باستثناء مول التى لم تتحرك حين خرج الجميع، اتجهت الى الباب وأغلقته وعادت لتجلس على كرسى بجانب السرير. امرأة عجوز ضئيلة بشعة بشكل مفرط فى الوجه والجسد يبدو أنها استدعيت لتلعب دورا معينا فى الاحداث

المشهورة التي آمل أن أصل الى نهايتها . كانت اكثر ملامحها بروزا لأول وهلة : ذراعين رفيعتين صفراوين ملتويتين بسبب تشويه عظمي، وشفتين عريضتين سميكتين تلتهمان نصف الوجه تقريبا. وكانت تلبس حلقا على شكل صليب من العاج يتأرجح بشكل أهوج عند أقل حركة من الرأس .

توقفت لأسجل أنني أشعر بحالة غريبة داخلي: ربما هلوسة .

★★★

بدا لماكمان أن أمر العناية به قد أوكل لهذه المرأة. صواب. فقد قرر اولئك الذين هم في السلطة أن رقم ١٦٦ من اختصاص مول . لقد عينت له رسميا. تحضر له الطعام يوميا – طبقا كبيرا يتناوله ساخنا أولا ثم باردا.. تفرغ قصريته كل صباح وهو أول شيء تفعله ، ثم تشرح له كيف يغسل جسده، وجهه ويديه كل يوم، والاجزاء الاخرى من الجسم بالتتابع على مدار الاسبوع ، الاثنين غسل القدمين ، الثلاثاء الساقين حتى الركبتين . الاربعاء غسل الفخدين ، وهكذا، وتتوج يوم الأحد بالرقبة والاذنين . لا . الأحد تستريح من الغسل، فهي تنظف الارضية وتنفض المرتبة من حين لآخر . ويبدو أنها تجد سعادة مفرطة في التلميع حتى أن زجاج النافذة الوحيدة الذي لم يفتح قط يعكس الاضواء الثلجية خارجه. ابلغت ماكمان بما هو مسموح أن يفعله وبما هو غير مسموح. هل يعني هذا أنها تبقى معه طوال الوقت ؟ لم لا ؟ لكن لابد أن لها اهتمامات أخرى تمنحها وقتها في مكان آخر ، وتعليمات أخرى لتعطيها . في المراحل الاولى قبل أن يتعود هذه الحياة الجديدة، كانت بالتأكيد تتركه وحيدا اقصر وقت ممكن، بل كانت تمكث معه لترعاه جزءا من الليل. كم كانت متفهمة وذات طبيعة خيرة تظهرها الحكايات التالية. ذات يوم بعد إيداعه بقليل، ادرك ماكمان أنه يرتدي بدلا من ملابسه المعتادة جلابية طويلة واسعة من الكتان او ربما من اللباد . بدأ في الحال إحداث جلبة وضوضاء من أجل ملابسه بما فيها محتويات جيوبه . وصاح: اشيائي –

اشيائى .. مرات ومرات ضاربا بيديه السرير والبطاطين . جلست مول على حافة السرير ووضعت إحدى يديها فوق يد ماكمان والاخرى على جبينه . كانت ضئيلة بحيث إن قدميها لم تصلا الى الارض . حين هدأ قليلا اخبرته بأن ملابسه لم تعد موجودة وبالتالى لا يمكن إعادتها اليه. أما بالنسبة للاشياء التى كانت فى جيوبه ، فقد وجدوا أنها بلا قيمة ولا تصلح إلا للرمى عدا يد سكين صغيرة من الفضة يمكنه استعادتها فى أى وقت . هذه الايضاحات اوجعته وجعلته يضيف بسرعة ضاحكا بأنها لا شك تمزح وأن ملابسه فى الواقع قد اصلحت ونظفت وكويت ونثر عليها بعض النفتالين وطويت ووضعت فى دولاب حاملة اسمه ورقمه لتكون آمنة كأنها مودعة فى بنك انجلترا. وواصل بصورة عنيفة فى طلب اشيائه كأنه لم يفهم كلمة واحدة مما أخبرته به، فاضطرت الى تذكيره بالتعليمات التى وقع عليها والتى لا تتسامح مع أى نزيل يستأنف اتصاله بأى شىء يتعلق بحياته التى هجرها حتى يأتى اليوم الذى يخرج فيه من البيت . ولكن حين واصل بانفعال والحاح فى طلب أشيائه خاصة قبعته ، تركته قائلة إنه غير عقلانى . وعادت بعد قليل تحمل بأطراف اصابعها القبعة المطلوبة، ربما استعادتها من كومة الزبالة فى ركن حديقة الخضراوات ، لأنها كانت ملوثة بالسباخ . وبدت كأنها تتعفن . الأدهى من ذلك أنها جعلته يلبسها وساعدته فى ذلك ، كما اعانته أن يجلس فى السرير بعد أن رتبت الوسائد بطريقة تبقيه مسنودا دون تعب ، وتأملت برقة الوجه العجوز الحائر وهو يسترخى وحاولت أن تبتسم بينما العينان الصغيرتان الحمراوان تلتفتان بجبن نحوها، كما لو عرفانا بالجميل ، او ترتفع اليدان لتمسحا القبعة وتثبتها اكثر على الرأس ، وتعودان على البطانية ثانية. وأخيرا مرت بينهما نظرة طويلة، نفخت شفتا مول لتفترقا عن ابتسامة مفزعة ، جعلت عينى ماكمان ترتعشان كعينى حيوان يحدق به سيده ويضطره أن ينظر بعيدا. وهذه هى نهاية الحكاية . لابد أن هذه القبعة هى التى تركت وسط السهل، الشبه كبير جدا، لو

تفاضينا عن التداول والاستعمال . أو لا يكون ماكمان هو نفسه على الرغم من التشابه الكبير ؟ مع الأخذ في الاعتبار قوة مضى السنين وما تفعله جسديا بالمرء.. وخلافه. فآل ماكمان كثيرون في الجزيرة ويفتخرون بذلك، والاكثر، عدا بعض الاستثناءات القليلة فهم في التحليل الاخير اتوا من الفصيلة اللامعة ذاتها، لذا من الحتمي أن يشبه احدهم الآخر، آنذاك والآن ، لدرجة أن يختلط الأمر حتى في عقول اولئك الذين يتمنون لهم الخير ولا يحبون أكثر من التمييز بينهم، لا مشكلة ، أية بقايا من جسد وروح تفعل ذلك، فلا معنى للتلصص على الناس، فما دام يسمى كائنا حيا فأنت لست مخطئا، فقد وقعت على الشخص المطلوب . ولمدة طويلة لم يتحرك ماكمان من سريره دون أن يعرف إذا كان باستطاعته المشي او حتى الوقوف وخاف. لو استطاع ، أن يكون بذلك مخالفا لتعليمات السلطات . دعنا إذن نفكر مليا في هذه الخطوة الاولى . وهي اقامة ماكمان في بيت القديس جون ، ثم ننتقل الى الخطوة الثانية، فالثالثة اذا كان ذلك ضروريا .

★★★

آلاف الاشياء الصغيرة تحتاج الى تدوين. تبدو غريبة جدا لو فسرتها من وجهة نظري بشكل صحيح . لكن ملاحظاتي تتجه بغرابة ، كما ادركت اخيرا، إلى الغاء كل فحوى الكلام الذي تسجله . ولذا اتعجل في الابتعاد عن هذه الحرارة غير العادية، اشير الى ذلك فقط، فقد استحوذت على اجزاء معينة من حسن تدبيري لن احدد ايها، كنت اتوقع ان اغدو باردا ، مهما حدث .

★★★

هذه المرحلة الاولى، تلك التي على السرير ، شهدت تطور العلاقة بين ماكمان وراعيته. نمت بينهما بالتدريج حميمة وصلت بهما في لحظة معينة، أن يناما معا ويلتصقا بأفضل جهد استطاعاه. وبالنسبة لعمرهما وتجربتهما المحدودة في الحب

الجسدى، كان من الطبيعى ألا ينجحا من أول ضربة فى أن يقدم كل منهما الانطباع الذى يريده للآخر. وكان المشهد كالتالى: ماكمان يحاول أن يصر عريه ليدخله فى عرى شريكته، كما تدخل الوسادة فى كيسها ، ثناه طيتين ودفعه بأصابعه، اشعرهما ذلك بالسخونة دون ان يثارا بشدة، ومع أنهما كانا فاقدين لكل شئ، فقد نجحا اخيرا بعد ان استجمعا لمساعدتهما كل مواردهما من البشرة والمخاط والخيال ، ليشعلا من ضربتاهما الجافة الضعيفة نوعا من الاشباع الكئيب ، حتى أن مول ، وهى الاكثر تحفظا تمنت قائلة : آه لو تقابلنا قبل ستين سنة . ولكن الطريق الطويل للوصول الى هذه اللحظة ، كان مملوءا بالهياجات والذعر والتلعثم الخجول ، مما أعطى ماكمان بعض البصيرة فى فهم معنى التعبير «اثنان صحبة»، وجعله يتقدم بشكل ملحوظ فى استخدامه للكلمة المنطوقة ، وتعلم فى وقت قصير أن يطلق النعمات واللاءات، وهذا كثير وهذا يكفى، فى الوقت المناسب ما يبقى الحب حيا. وكان ذلك ايضا المناسبة لدخوله عالم القراءة المفرح ، والبركة فى الخطابات الملتهبة التى تكتبها مول له وتضعها بين يديه. ولئن كانوا فى المدرسة، فإن ذكرياتهم تلاحقهم فيفهموا ما يقرأونه ، لكنه استطاع ان يفهم رسائلها دون شروح او مساعدة من أحد. يمسك بالورقة بعيدا عن يمينه بقدر ما تسمح ذراعه ، يقرأ ومول واقفة متحفظة قليلا، بعينين مسبلتين تقول لنفسها : الآن هو فى الجزء كذا ، وبعد قليل : إنه فى الجزء كذا وتظل هكذا حتى تسمع خشخشة وضع الورقة فى المظروف معلنة أنه انتهى فتلتفت اليه بشوق لتراه يرفع الخطاب الى شفتيه او يضغطه على قلبه. استرجاع لذكريات أخرى من الصف الرابع. ثم يرجعه لها فتضعه تحت وسادته مع الخطابات الأخرى الموجودة هناك مرتبة حسب تواريخها مربوطة وموضوعة فى مظروف . هذه الرسائل لا تختلف كثيرا فى الشكل او اللهجة مما سهل الامر كثيرا على ماكمان .

تكتب له مثلا: « حبيبى .. لا يمر يوم دون ان اشكر الله راكعة على ركبتى، لأنه جعلنى ألتقى به قبل أن أموت.. فنحن سنموت قريبا . أنت وأنا . ذلك واضح وكل ما أطلبه أن يتم ذلك فى اللحظة ذاتها ، على أية حال لدى مفتاح خزانة الادوية لكن دعنا الآن نستمتع بهذا الغروب الرائع بعد يوم طويل عاصف. ألا توافقنى ؟ ليتنا تقابلنا قبل سبعين سنة ! لا .. فكله خير.. فليس لدينا الوقت لنكبر ويقرف احدنا الآخر، او نرى شبابنا يتسرب منا، ونستدعى بغثيان نشوات الصبا، ونبحث عن صحبة طرف ثالث أنت من جهة وأنا من جهة اخرى، ونفقد التواصل ومعرفة بعضنا البعض.. لابد أن ننظر للاشياء فى وجهها .أليس كذلك يا أليفى الحلو؟ يكفى حين تمسكنى بين ذراعيك وأضمك بذراعى. إن ذلك بالطبع لا يقاس بالمقارنة بتواصل الشباب او حتى منتصف العمر، لكن كل شيء نسبى. دعنا نضع ذلك فى اعتبارنا، ذكور الظباء وإناثها لها حاجاتها، ونحن لنا احتياجاتنا، ومن المدهش أنك تعالج الامر جيدا . من الصعب أن أتجاهل ذلك، يا لها من حياة عفيفة ومتزنة تلك التى لابد عشتها ، وأنا أيضا، لابد أنك لاحظت ذلك ، وخذ فى اعتبارك أن الجسد ليس هو الغاية والنهاية ، خاصة فى عمرنا ، اذكر لى العشاق الذين يستطيعون ان يفعلوا بأعينهم ما يمكننا أن نفعل، والتى سترى فيما رأته كل ما يمكن أن تراه، وتجد صعوبة كبيرة فى الغالب لتظل مفتوحة ، وبرقتها، دون عون من الوجدان ، نتحقق يوميا حين تفصلنا التزاماتنا الشخصية. وخذ فى اعتبارك، بما أنه ليس لدينا ما نخفيه ، أننى لم أكن قط جميلة، أو متناسبة التقاطيع، بل قبيحة وحتى مشوهة بناء على الشهادات التى قيلت فى حقى . كان أبي يقول إن الناس تجرى ميلا لتبتعد عنى ، ولم انس ذلك قط. وأنت أيها الحبيب، حتى أنت حين كنت فى سن تعلى فيها من نبض الجمال، هل مرت بذهنك الحاجات الضروية الأخرى؟ أشك فى ذلك . ومع مرور السنين اصبحنا اقل بشاعة حتى من افضل معاصرينا ، وأنت بصفة خاصة قد احتفظت بشعرك. يبدو لى أننا

لسنا بدون براءة او نقاء، والحمد لله أننا لم نُخدم ولم نُفهم قط، السلوك الاخلاقى يعنى لنا اخيرا فصل الحب . فدعنا نستحلبه قدر استطاعتنا، فهناك كمثرى لا تنضج إلا فى ديسمبر ، لا تقلق من وسائلنا . اترك كل ذلك لى ، وسيدهش كل منا الآخر، إتبع تعليماتى ، فسيعود عليك ذلك بالكثير. ولابد أن نقبل انفسنا كما نحن فلا تقلق . دعنا نفكر فى الساعات التى نقضيها مستلقيين وملتفين معا فى الظلام. يعمل قلبانا كقلب واحد، نصغى لما تقوله رياح الليل فى الخارج فى الشتاء، نفكر فيما نحن فيه وما كنا عليه ونغوص معا فى تعاسة لا خجل فيها . تلك هى النظرة التى يجب انْ نتطلع بها الى الاشياء . كن شجاعا يا ماك الحبيب المشعر العجوز ، فالمحار يقبّل بالضبط فى المكان الذى تتوقعه من مول ..

تعليق: تساءلت عن المحار، فلدى آمال حول ذلك .

ذلك كان الاسلوب العشوائى لبوح مول ، وقد يئست بلا شك من أن تجد متنفسا لمشاعرها بالطرق العادية. فكانت ترسل له ثلاثاً او اربع رسائل اسبوعيا، وماكمان لا يرد . أعنى كتابة، ولكنه يعبر بكل وسيلة اخرى يستطيعها عن سعادته بتلقى تلك الرسائل . وفى نهاية هذا المشهد العاطفى ، أعنى فى وقت متأخر من علاقتهما، بدأ يؤلف بعض المقاطع الشعرية عجيبة التركيب ليقدمها الى عشيقته التى شعر أنها بدأت تبتعد عنه .

أمثلة : ماك المشعر ومول الممصوصة

فى الايام والليالى المنتهية

فى هلوسة مستمرة

الحب، فى النهاية ، هو ما يوحد الناس

او . الى الارض الخالدة الموعودة

فى اقرب مقبرة

مع محبوبته يدا بيد

يقودهما الحب اخيرا

كان لديه الوقت ليؤلف حوالى عشر او اثنتى عشرة مقطوعة بهذه الطريقة، تتميز كلها بتهليلها للحب الذى اعتبره كنوع من الصمغ المميت ، وهو تصور تقابله كثيرا فى النصوص البوليسية الغامضة . ومن العجيب أن ماكمان كاد ينجح فى وقت قصير وبعد هذه البدايات الميمونة للارتقاء بنفسه الى هذا المستوى. فماذا كان الذى سيحققه لو كان قد اندمج فى علاقات جنسية حقيقية فى سن مبكرة .

أنا ضائع ، ولا كلمة .

بدايات ميمونة بالفعل كانت خلالها مشاعره تجاه مول تتسم ، بصراحة، بالاشمئزاز . شفتاها على وجه خاص تصده وتنفره ، هاتان الشفتان ذاتهما، او إنهما تغيرتا قليلا فذلك لا يهم، بعد أشهر قليلة من بداية العلاقة، كان يمصهما بشراهة سعيدة ، بعد أن يقفل عينيه ، ويغطيهما بيديه ضمانا لسلامة اكبر. وكانت هى تجهد نفسها فى ذلك الوقت بحماسة لا تكل، مما يفسر لنا لماذا بدأت تضعف فى النهاية بل وتحتاج بدورها الى إثارة ، إذا لم تكن المسألة مسألة صحة، فذلك لا يستبعد فرضية ثالثة، بمعنى أنها وقد قررت اخيرا إنها قد خدعت فى ماكمان وأنه ليس الرجل الذى توقعته، فبدأت تبحث عن طريقة لوضع حد لعلاقتهما الجنسية، ولكن بلطف حتى لا تسبب له صدمة . لسوء الحظ أن ما يهمنا هنا ليس مول، التى هى أنثى فى النهاية، بل ماكمان، وليس نهاية علاقتهما، بل بدايتها .

فى الفترة القصيرة من اكتمال العلاقة بين هذين القطبين المتضادين، والتسخين من جانب احدهما والتبريد من الآخر . نشأ هناك تساو أو تعادل فى درجة الحرارة لا غنى عنه . ولا حاجة لإضافة اية ملاحظة. لأنه إذ كان لا مفر

من أن تملك كى لا تملك ملكت، ولم تعد تملك شيئا. ولست مضطرا للاسهاب فى ذلك، ودع الاحداث تتكلم عن نفسها فتلك هى الطريقة الصحيحة بشكل أو بآخر. مثلا ، ذات يوم ، حين اعتاد ماكمان ان يُحب دون أن يستجيب لذلك الحب كما سيفعل بعد ذلك، أبعد بعنف وجه مول عن وجهه بحجة فحص قرطها ، وما إن حاولت أن ترد هجومه بمثله ، لطمها بأول كلمات جاءت الى ذهنه : لماذا صليبان؟ ملمحا أن واحدا يكفى . وردت عليه ردا عبثيا : لماذا اذنان ؟ لكنها حصلت على عفوه بعد قليل ، وقالت بابتسامة – وهى تبتسم عند اقل شىء – إنها اللصان ، فالمسيح فى فمى. ثم فشخت فكيها ، وجذبت شفتها المنقطة، كاشفة عن ناب وحيد يكسر رتابة فراغ اللثة ، أصفر كلبى (من الكلب) عاريا حتى جذوره، منحوتا بشكل حاد من الاستعمال ربما، ويقدم الضحية المحتفى بها. وبسبابة يدها الطليقة لمسته قائلة : إنه مخلخل ، سأستيقظ فى أحد هذه الصباحات الجميلة لأكتشف أننى قد ابتلعته. من الافضل لو خلعته . تركت شفتها التى قفزت لمكانها بخبطة . وتركت هذه الحادثة انطباعا قويا على ماكمان ، وعلت محبتها فى قلبه ، وأحس بسعادة بعد ذلك وهو يضع لسانه فى فمها ويتجول به على لثتها، وقد كان لهذا الصليب المتعفن دوره بالتأكيد فى تلك السعادة، وأى حب يخلو من مثل هذه المنشطات غير الضارة؟ احيانا يكون شيئا ، رباط جورب مثلا او رائحة مزيل لعرق تحت الابط وأحيانا صورة بسيطة لشخص ثالث. كلمات قليلة فى النهاية عن انهيار هذه العلاقة . لا. لا أستطيع .

★★★

تعبت من تعبى، آخر قمر ابيض اراه ، ندم وحيد، ليس ثنائيا ، أن تكون ميتا، قبلها او بعدها او معها ، وتصبح ميتا على ميت من الجنس البشرى البائس، دون أن يكون عليك أن تموت وسط الاحياء ثانية . كان قمرى هنا، على الارض وكنت قادرا على الرغبة فيه، وذات يوم قريب ، فى ليلة ارضية، وتحت الثرى ، سيقول

إنسان محتضر مثلى فى ضوء الدنيا، ليس ثنائيا ، ولا حتى ذلك ، ويموت دون أن تكون لديه القدرة على الحسرة .

★★★

مول، سأقتلها. واصلت عنايتها بماكمان لكن لم تعد كما كانت. حين تنتهى من التنظيف تجلس على كرسى فى منتصف الغرفة بلا حراك . وإذا ناداها تنهض وتجثم على حافة السرير وتذعن حتى للدغدغة لكن كان من الواضح أن فكرها فى مكان آخر، ورغبتها الوحيدة أن تعود الى كرسيها وتواصل الحركة المألوفة - الآن - بتدليك معدتها ببطء ضاغطة عليها بيديها الاثنتين. بدأت تفوح منها رائحة، لم تكن رائحتها حلوة قط، لكن بين أن تكون رائحتها غير حلوة وبين إصدار هذه الرائحة، بون شاسع . وبدأت تنتابها ايضا نوبات من القيء فتستدير بحيث لا يرى عشيقها سوى ظهرها المتشنج ، وتتقيأ طويلا على الارض ، وتبقى هذه الافرازات أحيانا ساعات حيث سقطت ، حتى يأتى وقت يكون فيه لديها القوة لتذهب وتحضر ما تحتاج اليه في التنظيف . منذ نصف قرن كان سيظنها الناس حاملا وهى بهذه الحالة. وبدأ شعرها يتساقط بغزارة ، واعترفت لماكمان بأنها لا تجرؤ على تمشيطه خوفا من أن يتساقط بمعدل اسرع. قال لنفسه فى اقتناع : إنها تخبرنى بكل شيء. كانت هذه اشياء صغيرة بالمقارنة بالتغيير الذى حدث لبشرتها التى تحولت بسرعة من الاصفر الى الزعفرانى . منظرها العليل لم يثبط رغبة ماكمان فى أن يحتضنها برائحتها الكريهة واصفرارها ، وصلعها ، وقيئها بين ذراعيه. وقد كان سيفعل ذلك لولا معارضتها . يمكن للمرء أن يفهمه (ويفهمها ايضا). فحين يتصل شخصان روحيا ويكون الحب فقط هو الذى يعوض حياة امتدت بشكل وحشى ، من الطبيعى ان يرغب المرء فى الاستفادة من الموقف قبل أن يفوت الوقت، ويرفض أن تمنعه مشاعر محتشمة تحتج بضعف القلب مثلا، وهى مما يزدريه الحب الحقيقى

ومع ان كل شيء يشير الى أن مول متوعكة ومنزعجة فإن ماكمان لم يستطع منع نفسه من تفسير موقفها بتراجع حبها له. وربما يكون هناك شيء من ذلك بالفعل. على أية حال، كلما تهاوت اكثر ، تشوق ماكمان أن يسحقها ضما الى صدره، وذلك امر غريب وغير عادى ولذا استحق ان نشير اليه. حين استدارت ونظرت إليه – مازالت تفعل ذلك من وقت لآخر – تخيل أنه قرأ فى عينيها حبا وندما بلا حدود. فأصابه نوع من الاهتياج ، فبدأ يضرب صدره ورأسه وحتى المرتبة بقبضتيه ، ويتلوى ويصرخ علها تشفق عليه وتتقدم لتريحه وتجفف دموعه ، كما فى ذلك اليوم الذى طلب فيه قبعته . لا . ليس كذلك . لم يكن ما فعله عمدا ، ولم تقم بأية محاولة لتوقفه ، بل تركت الغرفة حين استمر أطول مما يجب ، ثم وحيدا وغير مراقب ، واصل تصرفه كما لو أنها بجانبه ، مما أثبت له أنه غير مرغوب فيه ، إلا إذا انتابه الشك بأنها تقف خارج الغرفة تتنصت . حين هدأ أخيرا ، حزن على الحصانة الطويلة التى فقدها ، المأوى والاحسان والرقة الإنسانية . وحمله شعوره بتفاهته إلى التساؤل ما الحق الذى يملكه أى شخص ليعتنى به ؟ كانت أسوأ أيام ماكمان ومول أيضا، ولا يمكن إنكار ذلك . فقدت نابها آنذاك . سقط وحده ، لحسن الحظ كان الوقت نهارا فاستطاعت أن تلتقطه وتضعه فى مكان آمن . قال ماكمان لنفسه حين أخبرته : كان فى إمكانها أن تقدمه لى هدية ، أو على الأقل تريه لى ، لكن بعد فترة قليلة قال : أولا : كونها أخبرتنى مع أنها غير مضطرة ، علامة على الحب والثقة بى ، وثانيا : كنت سأعرف على أية حال حين تفتح فمها لتتكلم أو تبتسم ، وأخيرا : إنها لم تعد تتكلم أو تبتسم .

وذات صباح ، فى وقت مبكر ، جاء رجل لم يره من قبل وأخبره أن مول قد ماتت . أزيح واحد عن الطريق على الأقل . قال : اسمى «ليمويل» من آل إريان ، وأنت مهمتى من الآن فصاعدا ، ها هى عصيدتك ، كلها وهى ساخنة .

★★★

جهد أخير . ليمويل يعطى الانطباع أن لديه قليلا من الغباء أكثر منه سوء نية، ومع ذلك فسوء النية لابد أن يؤخذ فى الاعتبار . حين أصبح ماكمان قلقا أكثر وأكثر من وضعه كما هو واضح ، ولأنه استطاع أن يفرز ويعبر بما فيه الكفاية عن القليل الذى يفهمه مما يعبر ذهنه ، فيسأل سؤالا ، من النادر أن يلقى إجابة على الفور . مثلا حين سأل إذا كان البيت الذى يقيم فيه مؤسسة خاصة أم تديره الدولة ، وهل هو نزل للمسنين أو بيت للمجانين ، وهل هناك أمل أن يأتى اليوم الذى يخرج فيه ، وإذا كان ذلك ممكنا ، فما هى الشروط والخطوات التى تتبع ؟ ظل ليمويل فترة طويلة غارقا فى التفكير ، ربما عشر دقائق أو ربع ساعة بلا حراك ، أو إذا فضلت كان فيها يهرش رأسه أو تحت إبطه كما لو أن سؤالا كهذا لم يخطر بباله ، أو ربما كان يفكر فى شئ آخر تماما . وإذا نفد صبر ماكمان أو شعر بأنه لم يوضح نفسه ، وغامر بمحاولة ثانية ، فإن إشارة متغطرسة تأمره بالصمت . هكذا كان ليمويل أحيانا ، أو قد يصرخ ، ضاربا الأرض بعصبية لا توصف : دعنى أفكر يا خراء . وينتهى الأمر عادة بقوله إنه لا يعرف . كان خاضعا ، تقريبا ، لنوبات هوس ذات طبيعة مرحة ، فهو يضيف : لكنى سأستفسر عن الأمر . ويخرج مفكرة كبيرة كزند خشب ويكتب ملاحظة ، متمتما : خصوصى أو عام ، مجانين أو مثلى ، كيف يمكن الخروج .. الخ ، فيتأكد ماكمان آنذاك أنه لن يسمع ثانية عن الموضوع .

سأل ذات يوم : أيمكننى أن انهض ؟ لقد عبر أثناء حياة مول عن رغبته فى النهوض والخروج إلى الهواء الطلق بخجل وتهيب كما لو كان يطلب الوصول إلى القمر . كانت تقول له بأنه لو كان بصحة جيدة لسمحوا له بالفعل بالخروج إلى الهضبة، وإذا جاء ذلك اليوم فسترى فى الصالة الكبيرة حيث تتجمع هيئة المسئولين عند الفجر قبل انهماكهم فى واجباتهم ، مذكرة معلقة على لوحة الإعلانات تقول : دعوا رقم ١٦٦ ينهض ويخرج . حين يكون الأمر متعلقا

بالتعليمات فإن «مول» لا تلين ، ويكون صوت الأوامر أعلى من صوت الحب فى قلبها . المحار مثلا ، الذى رفضته الهيئة فى مذكرة تلفت انتباهها إلى المادة التى تمنع ذلك ، والتى يمكن التحايل عليها بسهولة، لكن ماكمان لم تقع عيناه قط على أى محار . كان ليمويل مصنوعا من مادة أكثر صرامة من هذه الناحية ، كما أن علاقته بالقوانين قليلة أو لا علاقة له بها . ولابد أن يثور سؤال فى ذهن شخص ينظر إلى المشهد من بعيد فيما إذا كان ليمويل يفطن لما يدور حوله ، لأنه حين لا يكون ثابتا فى مكان، غائبا عن الوعى ، فهو يسير بخطوات ثقيلة غاضبة مترنحة تدق الأرض لساعات مرتفعة منخفضة، يومئ ويلوح ويتلفظ بكلمات غبية لا معنى لها . تجْلده الذاكرة ، وعقله يغص بالحيات من نوع الكوبرا ، لا يجرؤ أن يحلم أو يفكر وهو أعجز من أن يفعل ذلك ، صرخاته نوعان ، تلك التى ليس لها سبب سوى ألم أخلاقى مبرح ، وتلك ، التى تشبه الأولى من كل ناحية ويأمل أن يحبط بها مفعول السابقة . ويبدو أن الألم الجسدى يساعده بشكل كبير . ذات يوم رفع رجل بنطلونه وأظهر لماكمان قصبة ساقه المغطاة بالرضوض والخدوش والسحجات والندبات ، ثم أخرج بمهارة مطرقة من جيبه الداخلى ، وضرب جروحه القديمة ضربة قوية حتى إنه انقلب إلى الخلف أو ربما يجب أن أقول إلى الأمام . لكن الذى كان ينال أكثر الضربات ، رأسه وذلك مفهوم ، لأنه عظمى وحساس ومقر كل البؤس والشقاء ومن الصعب أن يخطئه المرء . كان ينهال عليه بالضربات بسعادة أكثر مما كان يفعل بالساق التى لا تسبب له أى ضرر . صاح ماكمان : ارفعنى .. ارفعنى ، وقف ليمويل جامدا ، ثم زأر : ماذا ؟ صاح ماكمان ثانية : ارفعنى عن السرير .. ارفعنى .

★★★

جاءتنى زيارة . الأمور تسير بشكل حسن . لقد نسيت نفسى . فقدتها . أنا أبالغ . الأوضاع لا تسير بطريقة سيئة جدا . كنت فى مكان آخر . شخص غيرى

كان يقاسى . ثم جاءتنى الزيارة لتعيدنى إلى الاحتضار . إذا كان ذلك يسليهم . الواقع أنهم لا يعرفون ، ولا أنا ، ويعتقدون أنهم يعرفون . تمر طائرة ، تطير منخفضة بصوت كالرعد . ضجتها لا تشبه الرعد تماما ، يقول المرء رعدا وهو لا يعنيه ، إنها مجرد ضجة عالية طائرة ، ولا تشبه صوتا آخر . سمعت الطائرات فى أماكن أخرى ، ورأيتها تطير ، رأيت أولى الطائرات وهى تطير ، وشاهدت آخر الموديلات ، ليس أحدثها لكن التى قبلها ، قبل الأخيرة . حضرت إحدى المحاولات ، ساعدنى يا الهى ، لم أكن خائفا . كان ذلك فوق مدرج سباق ، وأمى تمسكنى من يدى وتقول : إنها معجزة . ثم غيرت رأيى ، فلم نكن غالبا فى المستوى نفسه من التفكير . ذات يوم كنا نسير على طريق فوق تلة ذات انحدار شديد قرب البيت، تخيلت أن ذاكرتى تعج بتلال منحدرة مختلطة لا أستطيع تمييزها . قلت : السماء أبعد مما تظنين ، أليس كذلك يا أمى؟ لم يكن ذلك بسوء نية . كنت أفكر ببساطة بكل الفراسخ التى تفصلنى عنها . أجابتنى أنا ولدها : إنها بعيدة بالضبط البعد ذاته الذى تبدو عليه . كانت محقة . فقد كنت مذهولا آنذاك . ولا أزال أستطيع رؤية البقعة المواجهة لبوابة تايلر ، جناينى السوق ، له عين واحدة وشارب جانبى كشارب القط ، تلك هى الفكرة التى تجلجل . يمكنك رؤية البحر والجزر والأراضى المرتفعة والبرازخ ، والساحل يمتد بعيدا شمالا وجنوبا ، وحواجز الميناء المشروخة . كنا فى طريق عودتنا إلى البيت من عند الجزار . أمى ؟ إنها قصة أخرى ، حكاها لى شخص آخر وجدها مضحكة . القصص التى رويتها ، فى وقت ما ، كلها مسلية ، ولا واحدة غير مسلية . على أية حال هأنذا أعود إلى الهراء . الطائرة ، من ناحية أخرى ، مرت ربما بسرعة ثلاثمائة كيلو متر فى الساعة ، سرعة جيدة فى الوقت الحالى ، أنا معها بروحى ، ذلك طبيعى ، كنت مع كل الأشياء دوما بالروح ، بالجسد لا . فلست بهذا الغباء .

ها هو البرنامج على كل حال . نهاية البرنامج . يظنون أن باستطاعتهم إرباكي، وجعلي أغض النظر عن برنامجي . زناة حقيقيون ، ها هو : زيارة ، ملاحظات مختلفة ، واصل ماكمان . انفعال مستعاد ، ثم خليط من ماكمان والأسى ، وذلك لا يعتمد على . فرصاصي ليس خالدا ولا كراستي ولا ماكمان ولا نفسي على الرغم من المظاهر ، وكل ذلك قد يمسح في لحظة واحدة ، وهو ما أريده الآن . الزيارة . شعرت بضربة حادة على رأسي . قد يكون موجودا منذ فترة . المرء لا يهتم أن ينتظر شرط أن يلفت النظر إلى نفسه قدر ما يستطيع ، ذلك إنساني . لا أشك أنه أنذرني قبل أن يضربني . لا أعرف ماذا يريد ، لقد ذهب الآن . الضوء غريب منذ ذلك الحين . لا ألمح بشئ ، عتمة ، وفي الوقت ذاته ، مشعة . ربما أصبت بارتجاج في المخ . فتح فمه ، تحركت شفتاه ، لكني لم أسمع شيئا ، ربما لم يقل شيئا . فلست أصم بعد ، الطائرة شاهدة على ذلك . وإذا لم أسمع شيئا فلأنه ليس هناك ما أسمعه . ألا تكون الحياة قد جعلت حدة السمع للأصوات الإنسانية ضعيفة ؟ فأنا نفسي مثلا لا أسمع أى صوت يصدر عني، لن نعود إلى ذلك الآن ، لا ، ولا بأية درجة . ومع ذلك فإنني ألهث ، أسعل ، أتأوه ، وأبتلع ، أسمع ذلك قرب أذني وأقسم عليه . بكلمات أخرى لا أدرى لمن أدين بالشرف ، بدا عليه أنه مغتاظ . أيجب أن أصفه ؟ لم لا ؟ قد يكون شخصا مهما ، لقد رأيته بوضوح . بدلة سوداء ذات قصة قديمة ، ربما عادت الموضة . ربطة عنق سوداء . قميص أبيض كالثلج . أكمام منشاة بشدة كإسورة أكمام المهرج ، يغطي اليد تماما ، شعر أسود مدهون بالزيت . وجه كئيب أجرد بلون الدقيق . عينان كالحتان معتمتان ليس فيهما اشراق . بنية متوسطة وطول معتدل ، قبعة مصمتة مضغوطة بلطف لترفع بأطراف الأصابع . ثم دون انذار ، وفي حركة مفاجئة ، وتصميم ضرب على الجمجمة . عصا مطوية وطرف منديل أبيض يبرز من جيب الصدر ظننته في بادئ الأمر ، الحانوتي . وانزعجت لاستدعائه بسرعة قبل الموعد

بقى لبعض الوقت ، سبع ساعات على الأقل . ربما أمل أن يرانى أفرط قبل أن يمضى مما يوفر عليه الوقت والإزعاج . فكرت للحظة أنه سينهينى ، ياله من أمل ستكون تلك جريمة ، لابد أنه غادر فى السادسة فيوم عمله قد انتهى . الضوء غريب منذ ذلك الحين . يمكن القول إنه ذهب ثم عاد بعد ساعات ثم غادر نهائيا . لابد أنه بقى من التاسعة حتى الثانية عشرة ، ثم عاد من الثانية بعد الظهر حتى السادسة، تذكرت الآن . ظل ينظر إلى ساعته التى كحبة اللفت . ربما يعود غدا . ضربنى فى الصباح ، ربما فى الساعة العاشرة . بعد الظهر لم يلمسنى ، على الرغم من أننى لم أره على الفور ، لقد رأيته عندما أصبح فى وضع يسمح بذلك قرب السرير . واقفا يراقبنى أتحدث عن الصباح والمساء والساعة كذا وكذا . فإذا أردت أن تتكلم عن الناس ، ضع نفسك ببساطة مكانهم ، وذلك ليس صعبا . الشئ الوحيد الذى يجب ألا تتكلم عنه هو سعادتك . لا أستطيع أن أفكر بشئ آخر الآن . ومن الأفضل ألا أفكر . واقفا قرب السرير يراقبنى ، وقد رأى شفتى تتحركان ، فانحنى فوقى . كنت أريد خدمة منه ، أن أطلب منه أن يناولنى عصاى مثلا، ربما رفض . كنت سأتوسل إليه ، بيدين متشابكتين والدموع فى عينى ، أن يفعل ذلك كخدمة . هذا الخضوع أرفضه ، والحمد لله على انعدام صوتى ، لقد مات صوتى والبقية تأتى . كنت أستطيع كتابة ما أريد فى صفحة من كراستى وأريها له ، من فضلك أعد إلى عصاى ، أو كن عطوفا وناولنى عصاى . لكنى كنت قد خبأت الكراسة تحت البطانية حتى لا يأخذها منى ، فعلت ذلك دون أن أفكر . إنه كان واقفا منذ فترة يراقبنى وأنا أكتب (وإلا لما ضربنى) ، لابد أنى كنت أكتب حين جاء ، وبالتالى كان يمكنه أخذ الكراسة لو أراد ، ولم أفكر أيضا بأنه كان يراقبنى وأنا أدسها بعيدا عن الأنظار ، وبالتالى فإن حذرى سيلفت انتباهه إلى الشيء الذى رغبت أن أخفيه . ذلك تفسير لكم ، فقد أُخذ منى كل ما ملكته فى هذا العالم عدا الكراسة ، لذا أحتفى بها . وذلك أنسانى . بقية قلم

الرصاص، نسيتها ، وما قيمتها دون ورقة؟ لابد أنه قال لنفسه : بعد ظهر هذا اليوم على الغداء سآخذ الكراسة منه فهو يحتفى بها . لكن حين عاد من غدائه، لم تكن الكراسة فى المكان الذى رآنى أضعها فيه . لم يفكر بذلك . مظلته ، هل ذكرت مظلته ؟ أصغر لفة رأيتها . ينقلها بين حين وآخر من يد إلى أخرى ، يستند بثقله عليها وهو يقف بجانب السرير ، يثنيها ويستخدمها فى رفع بطاطينى ، فكرت بأنه سيقتلنى بها ، بطرفها الطويل المدبب ، كل ما عليه أن يغرسه فى قلبى . سيقول الناس : قتل متعمد . ربما يأتى غدا مزودا بمعدات أفضل أو مع مساعد وقد اعتاد وتآلف مع المبنى وملحقاته . لكنه إذا كان يراقبنى فقد كنت أراقبه . أعتقد أننا حدقنا ببعضنا لساعات دون أن يرمش لنا جفن . ربما ظن أنه يستطيع أن يجعلنى أبعد عينى لأنى عجوز وعاجز ، ياللحقير المسكين ، لقد مضى وقت طويل منذ رأيت كائنا بهذا الوصف أخفض له عينى . فى لحظة معينة ، ربما متضايقا من الرائحة ، حشر نفسه بين السرير والحائط محاولا فتح الشباك . لم يستطع . فى الصباح لم أرفع عينى عنه ، لكن بعد الظهر نمت قليلا ، لا أعرف ماذا فعل أثناء ذلك . ربما فتش فى أغراضى بمظلته ، فهى مبعثرة على الأرض الآن . ظننت للحظة أن أصحاب الجنازة قد أرسلوه ، أولئك الذين ساعدونى أن أعيش حتى هذا الوقت . لا شك يُفضلون أن أدفن بأقل احتفال ممكن . هنا يرقد مالون . مع تواريخ وكلمة تعطي فكرة طفيفة عن الوقت الذى استغرقه قبل أن يستأذن من الحياة ، ولتميزه عن سمييه فى هذه الجزيرة ، وهم عديدون تحت الأرض وفوقها . ومن العجيب أننى لم أقابل أحدا منهم ، ولا واحد ، مازال هناك وقت . هنا يرقد من لم يعمل خيرا قط ، ستة أقدام تحت الخراب ، هذا التفكير استمر لحظة ، أعنى نصف ساعة على الأكثر ، ثم حاولت أن أخمّن وظائف أخرى له ، كلها كانت مخيبة للآمال بالدرجة ذاتها. دافع غريب ذلك الذى يدفعك لمعرفة الناس وماذا يعملون وكيف يعيشون وماذا

يريدون منك ؟ . على الرغم من البساطة التى يرتدى فيها ملابسه السوداء ، ويستخدم مظلته ، وسيطرته الكاملة على قبعته المصمتة ، راودنى انطباع لفترة أنه متنكر ، ولكن ممن إذا جاز القول ، وما هو وجه تنكره ؟ فى لحظة معينة ، انتابه الخوف ، لأن تنفسه أصبح أسرع ، وابتعد عن السرير ، آنذاك رأيت أنه يلبس حذاءً بنياً طويلاً ، مما أصابنى بصدمة لا تستطيع الكلمات التعبير عنها . فقد كان ملوثا بكثافة بوحل طازج ، وقلت لنفسى : أية مستنقعات داس فيها ليصل إلىّ؟ وتساءلت إذا ما كان يبحث عن شخص بعينه ؟ من اللطيف أن أعرف. سأقطع ورقة من كراستى وأتأمل الحكاية بما يحضرنى من الذاكرة وأقدمها له غداً أو اليوم أو أى يوم آخر إذا عاد ثانية .

١ – من أنت ؟

٢ – ماذا تعمل ؟

٣ – هل تبحث عن شىء معين ؟ ماذا أسأله أيضاً ؟

٤ – هل تعرف أى شىء عنى ؟

٥ – لماذا أنت متجهم لهذه الدرجة ؟

٦ – هل ضايقتك فى شىء ؟

٧ – كان من الخطأ أن تضربنى .

٨ – أعطنى عصاى .

٩ – هل تعمل مستقلاً أم استخدمك أحد ؟

١٠ – من هو إذا كان الأمر كذلك .

١١ – ضع أشيائى حيث وجدتها .

١٢ – لماذا توقفوا عن إحضار الحساء ؟

١٣ - لماذا توقفوا عن إفراغ وعاء الإخراج ؟

١٤ - أتظن أنى أعيش فترة طويلة ؟

١٥ - هل يمكن أن أطلب منك خدمة ؟

١٦ - لماذا الحذاء البنى ومن أين الوحل ؟

١٧ - هل وضعك كوضعى ؟

١٨ - أيمكنك أن تعيد لى بقية قلم الرصاص ؟

١٩ - رقّم إجاباتك .

٢٠ - لا تذهب فلم أنته بعد .

هل تكفى صفحة واحدة ؟ لم تبق أوراق كثيرة . يجب أن أطلب ممحاة (أستيكة) وأنا فى خضم الموضوع .

٢١ - هل يمكن أن تعيرنى استيكة هندية ؟

حين ذهب ، قلت لنفسى : لقد رأيته بالتأكيد من قبل فى مكان ما ، والناس الذين رأيتهم رأونى أيضا . أنا واثق من ذلك . لكن من الذى لا يمكنك القول عنه : أعرف ذلك الرجل ؟ ثرثرة ولغو فارغ . توقفت عن انتظاره ، اعتدت ذلك ، كنت أفكر فيه محاولا الفهم ، لا تستطيع أن تفعل ذلك وأنت تنظر لأحد فى الوقت ذاته. حتى لم أره وهو يذهب . لم يختف كالشبح ، لقد سمعته ، تكة الساعة حين أخرجها ، خبطة المظلة الواثقة على الأرضية ، انفلاته وخطواته السريعة تجاه الباب ، إغلاقه الباب بهدوء ، وأخيرا ، وآسف لقول ذلك ، صفيره المرح المنعش يتلاشى تدريجيا . ماذا حذفت ؟ القليل أو لا شيء . سيعودون ليجعلونى أرى بوضوح أكثر ما الذى حدث، ويقولون لو كنت أعرف آنذاك، لكن الوقت فات الآن. نعم ، رويدا رويدا سأراه على حقيقته أو كما سيكون بالنسبة لى ، ليمكننى القول ثانية فات الوقت ، هناك إحساس ما تجاهك . أو ربما يكون طليعة لسلسلة

من الزوّار كلهم مختلفون ، يريح أحدهم الآخر ، كثرة ، ربما يرتدى فى الغد غطاءً للساقين ، وبنطلون ركوب خيل ، وقبعة مخططة ، وفى يده سوط ليتوافق ، بدلا من المظلة ، وحدوة حصان فى عروة الزر . كل من لمحتهم عن قرب أو عن بعد فى الجوار ، يمكن اعتبارهم من الآن فصاعدا ، من الماضى ، ذلك واضح . ومن بينهم نساء وأطفال ، فقد لمحت القليل منهم ، كلهم مسلحون بشىء يستندون عليه ويفتشون به فى أشيائى . وكلهم ، كبداية ، سيضربونني علي الرأس ، ثم يقضون بقية النهار يحدقون بى فى غضب واشمئزاز . يجب مراجعة استجوابى حتى أعدله حسب الظروف . ربما يوما ما ، يتغافل عن التعليمات ويعطينى عصاى . أو ربما أقبض على واحد ، فتاة صغيرة مثلا ، أحاول خنقها نصف خنقة ، ثلاثة أرباع خنقة ، نوع من التهديد ، حتى تعدنى بأن تعطينى عصاى ، وتحضر لى الحساء، وتفرغ الوعاءين ، وتقبلنى وتدللنى وتبتسم لى وتناولنى قبعتي وتمكث معى ، وتتبع عربة النعش تبكى فى منديلها . ذلك سيكون لطيفا ، فأنا خيِّر فى أعماقى ، رجل خيِّر ، كيف لم يلاحظ أحد ذلك ؟ فتاة صغيرة فى غرفتى ، تتعرى أمامى، تنام بجانبى ، وليس لها سواى . سألصق السرير بالحائط لأمنعها من الهرب ، لكن قد ترمى بنفسها من النافذة . حين يعرفون أنها معى ، سيحضرون حساءً لاثنين ، سأعلمها الحب والكراهية ، ولن تنسانى أبدا ، وسأموت مبتهجا ، ستغلق عينى ، وتضع قطنة فى فتحة مؤخرتى حسب التعليمات .

رويدك يا مالون ، رويدك أيها العجوز العاهر ، ذلك يذكرنى .. كم يمكن للمرء أن يصوم وهو فى أمان من الضرر ؟ اللورد عمدة «كورك» استمر لسنوات ، لكنه كان شابا وله قناعات سياسية وإنسانية ، كما سمح لنفسه برشفة ماء بين حين وآخر ، وربما محلاة . ماء .. يا إلهى .. كيف يتأتى ألاّ أشعر بالعطش .. ؟ لابد أن هناك عملية شرب تتم داخلى . إفرازاتى .. فلنتحدث قليلا عنى . فترة راحة

من كل أولئك الحرّاس السود . يا له من ضوء ! مقدم طعم الجنة ؟ رأسى ، تشب فيه النار ، مملوء بزيت مغلى . ترى ماذا سيكون سبب موتى فى النهاية ؟ عدم وصول الدم إلى المخ ؟ ستكون تلك آخر قشة . الألم غير محتمل تقريبا . إنه على روحى . صداع نصفى متوهج . سيأخذنى الموت على أننى شخص آخر . إنها غلطة القلب ، كما حدث فى صدر ملك الكبريت ، شنايدر أوشرويدر ، نسيت . إنه أيضاً يحترق خجلا من نفسه ومنى ومنهم ، من كل شىء عدا أن يكون واضحا . إنه لا شىء ، مجرد عصبية ، ومن يعرف ربما أول ما يفشل هو تنفسى، بعد كل اعتراف ، وقبله وأثناءه ، يالها من دوامة غمغمات ، الشباك يعلن بزوغ النهار ، رف من السحب الممطرة يفر هاربا . أتمنى لك وقتا طيبا ، بعيدا عن الظلمة الذائبة . شهقاتى الأخيرة ليست كما يجب أن تكون ، المنافيخ لا تأخذ راحتها ، الهواء يخنقنى ، ربما نقص فى الأكسجين . «ماكمان» الدميم تحت الصنوبرات الكبيرة السوداء مهتزة الفروع ، يحدق فى البحر الغاضب البعيد ، والآخرون هناك أيضا ، أو فى نوافذهم ، مثلى ، لكن وقوفا على أقدامهم ، فهم قادرون على الحركة ، أو هناك من يحركهم ، لا، ليسوا مثلى ، لا يستطيعون عمل شىء، لأى شخص ، يلتصقون بأشجار الحور المرتعشة . أو فى نوافذهم يصغون. ربما انتهى من نفسى أولا ، على قدر ما يكون ذلك طبيعيا وممكنا . السرعة التى استدير بها تجعل الأشياء صعبة بالفعل ، ومن المحتمل أن تزداد صعوبة ، يجب أن يؤخذ ذلك فى الاعتبار . يضاف إلى استجواب الزائر ، إذا كان معك كبريت حاول وأشعله ، كيف يتأتى ألا أسمع شيئا حين تحدث لى ، ومع ذلك سمعته وهو يغادر مصفرا ؟ بالتأكيد تظاهر بالحديث إلىّ ليجعلنى أعتقد أنى غدوت أطرش ، هلى أسمع شيئا فى هدوء اللحظة ؟ فلأجرب . لا . الجواب لا . لا البحر ولا الرياح ، لا الورق ولا الهواء الذى أتنفسه بجهد ، لكن هذه الجلبة الوافرة التى كالصفير المتعدد ؟ لا أفهم .أعد بيدى البعيدة الصفحات الباقية ،

ستكفى، هذه الكراسة حياتى ، كراسة طفل كبير ، استغرقت وقتا طويلا لأتأقلم معها، لذا لن أرميها ، لأنى أريد أن أسجل فيها ، للمرة الأخيرة ، أولئك الذين استدعيتهم لمساعدتى ، لكنى عليل ، ولذا لن يفهموا وقد ينقطعون عنى . الآن راحة .

★★★

مرتديا فوق قميصه الطويل ، ثوبا كبيرا مخططا يصل إلى كاحليه ، كان «ماكمان» يستنشق الهواء ويتعرض للتقلبات الجوية من الصباح حتى الليل ، واضطروا أكثر من مرة للخروج بحثا عنه ، حاملين المشاعل ، لإعادته الى زنزانته، ولأنه كان أصمّ لا يسمع صوت الجرس أو صرخات وتهديدات «ليمويل» أولا ثم الحراس الآخرين ، فينتشرون بملابسهم البيضاء ، يتسلحون بالعصى والمشاعل ، يضربون فى الأجمات والخمائل ونباتات السرخس التى تعترضهم ، ينادون على الهارب باسمه ، ويهددونه بأقسى العقوبة إذا لم يستسلم على الفور ، ويقولون ، أخيرا ، إنه ذهب كما يفعل كل مرة الى المكان ذاته ، ولم تكن حركاتهم إلا انتشارا للقوة لا ضرورة له . بعد ذلك ، كان «ليمويل» يخرج وحده فى صمت كعادته حين يعرف ما عليه ان يفعله ، ويتجه الى الدغل الذى أقام فيه «ماكمان» مكمنه ، وغالبا ما يبقى كلاهما فى الدغل بعض الوقت ، يلتصقان معا، فالمخبأ صغير، ولا يقولان شيئا، سوى الإصغاء الى أصوات الليل والبوم والريح مع ورق الشجر ، والبحر حين يكون هائجا وصوته مسموعا ، ثم أصوات الليل الأخرى التى لايمكن تمييزها ، ويحدث أحياناً ، أن يضجر «ماكمان» من كونه برفقة أحد ، فيعود وحده الى زنزانته ، حتى يلحق به «ليمويل» بعد وقت متأخر ، كانت غابة انجليزية أصيلة على الرغم من بعدها عن انجلترا ، غير منظمة بشكل مسرف، وافرة النماء لدرجة التوحش، الاشجار فى حرب مع بعضها، والأجمات والزهور والاعشاب البرية تتصارع كلها بحثا عن التربة والضوء، ذات مساء عاد «ماكمان» الى غرفته بفرع مقطوع من عوسجة ميتة لاستخدامه

كعصا يتوكأ عليها، أخذه منه «ليمويل» وضربه به ضربا مبرحا متواصلا، ولم يكتف بذلك، بل نادى على حارس يدعى «بات» ، متوحش تماما، على الرغم من مظهره السقيم، وقال له : «بات» اعتن بهذا . نتش «بات» العصا من ماكمان ، الذى تشبث بها بيديه، بعد أن رأى تحول الأمور، وظل يضربه بها حتى طلب منه «ليمويل» أن يتوقف ، ومع ذلك ظل يضربه لفترة أخرى، وكل هذا دون كلمة توضيح واحدة.

ولذا، فى فترة لاحقة ، حين أحضر «ماكمان» من نزهته، نبتة ناردين نزع جذرها ويصلتها على أمل أن يحتفظ بها فترة أطول ، بدل أن يقطفها ببساطة، ولقد عنفه ليمويل بشدة ، وهدده بأن يسلمه إلى جاك ثانية ، لا .. بات ثانية، فجاك حكاية أخرى، ومع ذلك فإن تدمير نصف الأجمة ليصنع نوعا من إكليل يختبىء فيه، لم يسبب له أى تأنيب. وليس هذا مدهشا ، فلا دليل ضده، ولو أستجوب حول ذلك لقال الحقيقة تلقائيا، فهو لايشك أنه فعل شيئاً خاطئا، ربما افترضوا بأنه لايفعل شيئاً سوى الاستلقاء، وأنه حتى لو أستجوب فسينكر بعناد ، ومن العبث الضغط عليه بالأسئلة ، بالإضافة إلى أنه لم توجه استجوابات لأحد فى بيت القديس جون. لكن هناك تدابير صارمة تتخذ ببساطة أو لا تتخذ تبعا لمنطق خاص، لأنك حين تفكر فى الأمر فأى قانون عدالة يمكن أن يربط بين زهرة فى اليد وحاملها بجريمة قطفها؟ أو أن مجرد حملها جريمة مشابهة لجرم بائع البضائع المسروقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليس من الأفضل اعلان ذلك بصراحة ووضوح لكل من يهمه الأمر، حتى يكون الاحساس بالذنب سابقا للعقوبة أو يسير معها بدلا أن يتبع تنفيذها؟ مشكلة.

وضع لطيف ، لطيف جداً فى الواقع ، والفضل للثوب الفضفاض الأبيض المخطط بالأزرق الدموى لكى لا يكون هناك خلط بين صنف ماكمان من ناحية وصنف «ليمويل» و«بات» و«جاك» من ناحية أخرى. أوراق شجر كثيرة كثيفة تعيش

داخلها الطيور طوال العام دون خوف، أو فى خوف فقط مما يشبهها ، تلك التى تطير فى الصيف أو الشتاء لترحل إلى أجواء أخرى، وتعود فى الصيف أو الشتاء التالى، الهواء مملوء بأصواتها خاصة عند الفجر أو الغروب.، أو تلك التى تطير فى أسراب فى الصباح إلى مراعٍ بعيدة كالغربان والزرازير ، وتعود فى المساء يلفها الفرح إلى المعبد حيث ينتظرها حراسه ، تكثر النوارس فى الجو العاصف، وتتوقف هنا فى طيرانها للداخل ، تدور طويلا فى الهواء القارص، تصرخ غضبا ثم تستقر على الأرض أو أسطح المنازل ولا تثق فى الشجر. كل هذا بعيد عن الهدف الذى أريده مثل أشياء كثيرة قلتها . كل ذلك كان ذريعة، سابو والطيور، «مول» والفلاحون، أولئك الذين فى المدن، يبحث أحدهم عن الآخر، ويهرب أحدهم من الآخر ، شكوكى التى لا تعجبنى، حالى وممتلكاتى، كل ذلك ذريعة لعدم الاقتراب من الهدف . الهجران، رفع الذراعين وخفضهما دون صوت أو لفت للنظر حتى لاتزعج السابحين. نعم ، من العيب أن نتظاهر، ومن الصعب ترك كل شىء. العينان اللتان يشتتهما الرعب، تتسكعان بذلة على كل ماتضرعتِ له طويلا ، فى صلاة أخيرة ، صلاة حقيقة أخيرة. صلاة لا تطلب شيئاً، ثم نفس صغير يتحقق، يحيى تشوقات الميتِ لتولد غمغمة فى العالم الصامت، تلومك بحب على يأسك المتأخر . الكلمة الأخيرة على طريق إعطاء القربان المقدس للمشرف على الموت. فلنحاول بطريقة أخرى . الهضبة الطاهرة الصافية .

★★★

حاول وواصل . هواء الهضبة النقى. نعم ، كانت هضبة، ولم تكذب «مول»، أو إنها جبل بمنحدرات متدرجة ، تحتل قمته ضيعة القديس جون . تهب الرياح هناك بلا توقف، تتسبب فى انحناء الأشجار المتينة وأنينها، تكسر الأغصان، تضرب الأجمات، تثير غضب السراخس، تبسط العشب، وتدفع الأوراق والزهور بعيداً فى دوامة سريعة.

آمل ألا أكون نسيت شيئاً . حائط عال يحيطها دون أن يحجب المشهد إلا إذا كنت متواريا. كيف يمكن ذلك؟ الفضل للأرض المرتفعة المتوجة بقمة تسمى الصخرة بسبب الصخرة التى تقع عليها. من هناك يمكنك رؤية المشهد الرائع للسهل والبحر والجبال ودخان المدينة ومبانى المؤسسة التى ترتفع عالية على الرغم من بعدها ، تتزين بنقاط صغيرة فى حالة هرج، أو نقط ملونة تظهر وتختفى ، وهى فى الحقيقة، الحراس يجيئون ويذهبون مختلطين .. كدت أقول بالسجناء بدل النزلاء! ترى عن هذا البعد الثوب المخطط كأنه بلا خطوط أو حتى يشبه الثوب على الإطلاق ، لذا يمكن للمرء أن يقول فقط، حين تزول دهشة الصدمة الأولى، هناك نساء ورجال أو على الأصح هناك ناس، دون أن تستطيع التمييز أكثر من ذلك . تراهم يتخطون مجرى ماء على فترات متباعدة - لكن إلى الجحيم بكل هذا المنظر اللعين . قل لى من أين برز كل ذلك؟ من تحت الأرض! باختصار جنة صغيرة لأولئك الذين يحبون الطبيعة على حالتها الوحشية . أحياناً يتساءل «ماكمان» ما الذى ينقص سعادته ؟ فله الحق أن يكون فى الخارج فى كل الأجواء، صباحاً وظهرا وليلا . تلفه وتخفيه الأشجار والأجمات بفروعها الممتدة، الطعام والسكن بالمجان ، مشاهد رائعة فى متناول اليد ، الحد الأدنى من الاضطهاد والعقاب الجسدى، غناء الطيور، ولا اتصال إنسانى بأحد سوى «ليمويل» الذى يبتعد عن طريقه ليتجنبه، المشى المتواصل والرياح العالية تذهل التأمل وقدرات الذاكرة ، «مول» ماتت، ماذا يتمنى أكثر من ذلك؟ لابد أن أكون سعيداً، لكنى أقل سعادة مما توقعت ، هكذا قال فى نفسه، واقترب من السور أكثر وأكثر ولكن ليس إلى درجة كبيرة، فقد كانت هناك حراسة . كان يبحث عن طريق للخروج وسط الخرائب التى لا يوجد فيها شىء أو أحد. وحشية المطاردين، الخبز الضئيل والمأوى البائس، وفرح الانعزال الاسود ، العجز والإحباط وسط كل هذا الجمال ، والمعرفة والحب . وقد عبر عن ذلك بقوله ، ولأنه ليس أديبا ، لقد نلت

مايكفى، دون أن يتوقف لحظة ليفكر فى الذى نال منه مايكفى، أو لمقارنته بما نال منه الكفاية ، حتى فقده، وإنه سينال منه ما يكفى ثانية حين يستعيده ، ودون أن يشك بأن الشيء الذى نشعر غالباً بأنه كثير، وندلله بالعديد من الأسماء، هو فى الواقع شيء واحد بل والشيء ذاته . لكن هناك تشويها فى هذا الموقف ، ووضع علامة المساواة بين الأشياء حين يحتاج اليها ، لا يعنى أنه بذلك يصنع أى فرق . كل ما عليه أن يواصل لهاثه بطريقته غير الفنية ، ويكفى ذلك . يزحف جانب السور تحت غطاء من الأشجار، باحثا عن فجوة ينسل منها خارجا فى ستار الليل ، أو عن مكان فيه مواقع للقدم يتسلقه. لكن السور كان ناعما لا فجوات فيه، وسطحه مغطى بزجاج مكسور أخضر، ولو ألقينا نظرة على المدخل الرئيسى، فسنجده واسعاً يسمح لعربتين بالدخول جنبا إلى جنب ، على جانبيه ، بيتان جميلان تغطيهما النباتات المتسلقة ، وتسكنها عائلات كبيرة العدد مستحقة ، ويمكن الحكم على ذلك من أسراب الأطفال الصغار الذين يلعبون فى الجوار، يلاحقون بعضهم بصرخات الفرح والغضب والشكوى . وطوّقه المكان من كل جانب ، وأوقعه فى حبائله، بسبب الأشياء المتعددة بحركتها الضئيلة وصراعاتها البسيطة ، مثل الأطفال والمساكن والبوابات وعرق الأشياء فى لحظة حركتها فى حشد فوضوى من الانهمار والرشح، ممسوكة كأنها فى فخ، تتغير وتموت ، كل حسب عزلته . وراء البوابة، علىَ الطريق ، تمر أشكال لم يفهمها «ماكمان» بسبب القضبان والغضب والارتجاف خلفه وعلى جانبيه، بسبب الصرخات، والسماء والأرض التى فرضت عليه أن يسقط ومعه حياته الطويلة المخدوعة. خرج حارس من أحد المسكنين ، ربما ليرد على مكالمة تليفونية ، يرتدى الأبيض ، وبيده شيء طويل أسود ، مفتاح، اصطف الأولاد على طول الممشى ، وفجأة برزت نساء . الكل صامت. فتحت البوابة والحارس أمامها . تراجع ثم استدار وجرى إلى عتبة باب مسكنه، وظهرت الطريق، مبيضة من الغبار، تحدها كتل سوداء تمتد لمسافة ليست طويلة حتى تتلاشى فى سماء رمادية ضيقة. ترك «ماكمان» الشجرة التى

تخفيه، وعاد صاعدا التلة، ليس جريا فهو يمشي بصعوبة ، ولكن بأسرع مايستطيع ، حانيا ظهره متعثرا، يساعد نفسه للسير أماما بالجذوع والأفرع التى تقابله . ورويدا رويدا تكون الضباب، والإحساس بالغياب، وبدأت الأشياء المأسورة تغمغم ثانية، كل لنفسه ، وكأن لم يحدث شيئاً أو يمكن حتى أن يحدث.

★★★

آخرون بالإضافة إلى ماكمان ، يهيمون من الصباح حتى المساء، ظهورهم محنية تحت أثوابهم الثقيلة ، فى الفُرج القليلة فى الغابة أو وسط الأشجار التى تحجب السماء ، أو فى السراخس العالية حيث يبدون كالسابحين . من النادر أن يقتربوا من بعضهم البعض، لأنهم قلة، والحديقة واسعة، وإذا تقابل اثنان بالمصادفة، يسرعان بالتراجع، ويتجنب كل منهما الآخر، كما لو أن الخجل يمنعهم من أن يروا بعضهم ، ولكن أحياناً يحتكون ببعضهم ورءوسهم مدفونة فى برانسهم الواسعة دون أن يلاحظوا ذلك.

★★★

كان «ماكمان» يحمل معه، ويتأمل من وقت لآخر، الصورة الفوتوغرافية التى أعطتها له «مول» ، صورة ملتقطة بالطريقة القديمة ، كانت تقف بجانب كرسى وتضغط بيدها ضفائرها الطويلة . وراءها تعريشة لنباتات متسلقة ذات زهور ، ربما ورود، حين أعطتها له قالت : كنت فى الرابعة عشرة .. أتذكر اليوم جيداً ، يوم صيف، وكان عيد ميلادى .. بعد ذلك اصطحبونى لمشاهدة فيلم سينمائى اسمه «بنش وجودى» ، يتذكر ماكمان هاتين الكلمتين ، أكثر ما أحبه فى هذه الصورة الكرسى الذى بدا أنه مصنوع من القش. كانت تضغط شفتيها جيداً كى تخفى نابها الوحشى، لابد أن الورود كانت جميلة، وتعطر الجو، مزق «ماكمان» الصورة فى النهاية ، ونشر أجزاءها فى الهواء ذات يوم عاصف. تبعثرت وتموضعت فى ظروف واحدة بخفة ورشاقة.

★ ★ ★

متى تمطر ، متى تسقط ثلجا .

نستمر . ذات يوم وليمويل يرتب زيه الخاص فى الصالة الكبيرة قبل أن يبدأ جولاته، وجد معلقا على لوحة الاعلانات ملاحظة تخصه. «مجموعة ليمويل: نزهة إلى الجزر . الطقس يسمح. برفقة السيدة . «بيدال» . الموعد الواحدة بعد الظهر.» راقبة زملاؤه وهم يبتسمون وينخس أحدهما الآخر فى الضلوع، دون أن يجرؤ أحدهم على قول كلمة . تلفظت امرأة بملاحظة ظريفة عابرة لتلطيف الجو . لم يكن ليمويل محبوبا ، ذلك واضح . لكن هل رغب فى أن يكون ذلك ؟ أمر أقل وضوحا . وقع بالأحرف الأولى على الملاحظة وخرج . كانت الشمس تجر نفسها عاليا فى السماء، تلسع فى طريقها كل مايواجهها .. الشكر لها . يوم رائع من مايو أو إبريل، الأرجح إبريل، أشك أنها اجازة عيد الفصح، أو قد تكون ، وعلى شرف هذا اليوم نظمت السيدة «بيدال» هذه النزهة لمجموعة «ليمويل»، نزهة إلى الجزر ستكلفها الكثير ، لكنها غنية، وتعيش لعمل الخير وجلب السعادة لحياة أولئك الذين هم أقل سعادة منها والتى تراهم خيّرين ، هى التى ابتسمت الحياة لها دائماً . وكما تقول ترد ابتسامتها مكبرة فى مرآة محدبة أو مقعرة، نسيت أيهما. حملق «ليمويل» فى الشمس بتقزز مستفيدا من احتجاب أشعتها، وصعد إلى غرفته فى الدور الرابع أو الخامس، حيث كان يمكنه أن يلقى بنفسه من نافذتها بأمان تام فى مناسبات عدة لو كان أقل عقلا . كان البساط الفضى الطويل فى موضعه، وينتهى فى نقطة ترتجف عبر البحر الهادىء. الغرفة صغيرة وفارغة تماما لأن «ليمويل» ينام على الألواح العادية ، بل ويتناول وجباته التى تتناقص تدريجيا عليها أحياناً. لكن ما حكاية «ليمويل» وغرفته؟ فلنستمر . لم تكن السيدة «بيدال» هى الوحيدة التى تهتم بنزلاء بيت القديس جون المعروف محليا باسم جون الملعون أو الملعون جون، وليست الوحيدة التى تتبرع لهم، بمعدل مرة كل سنتين، بنزهات برية وبحرية وسط مشاهد متجددة بجمالها وجلالها، أو حتى

إقامة أمسيات ممتعة داخل المبنى، أمسيات كاملة من الشعوذة والهرج والقيعرة (التكلم من البطن)، فى ضوء القمر على المصاطب . لا . هناك سيدات عملن مثلها، وشاركنها طريقتها فى التفكير ، وكن يسعدن بما يفعلنه ويستمتعن بقضاء وقت فراغهن بهذه الطريقة . لكن ما حكاية السيدة «بيدال»؟ فلنستمر.

حاملا بيد واحدة دلوين أحدهما محشور فى الآخر، تقوم «ليمويل» إلى المطبخ الواسع الذى يعج بالحركة والنشاط فى تلك الساعة ، ودمدم: ستة طلبات حساء لنزهة خارجية . قال الطباخ : ماذا؟ زأر «ليمويل» ستة طلبات حساء لنزهة خارجية . ودفع الدلو ناحية الفرن دون أن يتخلى عن يد الدلو بالطبع، خوفا من فكرة أن ينحنى ويرفعه ثانية، كان لديه حضور ذهن فى هذه المسألة . الفرق بين حساء النزهات وبين الحساء العادى أو حساء البيت كان ببساطة أن الأخيرة سائلة بشكل متسق بينما الأولى تحتوى على قطعة من اللحم بالدهن بقصد أن تحفظ قوة النزيل المتنزه حتى يعود . حين امتلأ الدلو ، انسحب «ليمويل» إلى مكان منعزل ، شمّر كمّه إلى الكوع، واصطاد قطع اللحم الست ، قطعته والخمس الأخر، أكل الدهن عنها ، مصمصها تماماً ، ثم ألقاها ثانية فى الدلو . حين تفكر فى الأمر تجده غريباً ، لكن فى النهاية ليس غريباً لدرجة كبيرة ، مع أنهم قد يعطونه ستاً إضافية لمجرد قوله ودون أن يطلبوا أمرا كتابيا . كانت زنازين النزلاء الخمسة متباعدة ، وقد حددت بمكر حتى لا يستطيع «ليمويل» معرفة الطريقة الأفضل ، بمعنى الأقل تعبا وإزعاجا ، فى اللف عليهم بالتناوب. فى الغرفة الأولى، شاب صغير ، منزوع النشاط والهمة، موضوع على كرسى هزاز قديم، قميصه مرفوع عن وسطه، يداه على فخذيه، يبدو كالنائم لو لم تكن عيناه مفتوحتين على اتساعهما . لم يخرج من غرفته إلا بتصريح، وأنذاك يصحبه شخص ما ليدفعه إلى الأمام. كان وعاء البول فارغا، بينما تخثر حساء اليوم السابق فى طبق طعامه، لو كان الأمر عكس ذلك لبدا أقل دهشة . لكن «ليمويل» اعتاد على ذلك ،

لدرجة إنه توقف عن التساؤل منذ زمن ، كيف يتغذى هذا المخلوق . أفرغ الطبق فى الدلو الفارغ وأعاد ملأه بالحساء الطازج ثم مضى ، يحمل دلوا في كل يد ، مع أنه حتى الآن يمكن ليد واحدة أن تحمل الدلوين . ويسبب النزهة أغلق الباب خلفه وهو احتياط غير ضرورى .

الغرفة الثانية كانت تبعد عن الأولى أربعمائة أو خمسمائة أو خطوة ، تضم مخلوقا تتجسد ملامحه الأساسية المثيرة ، فى قامته وجموده وبحثه الدائم عن شيء ما فى الوقت الذى يتساءل فيه عما يكون هذا الشيء . ليس هناك ما يوحى بسنه، إما أنه يحافظ على نفسه بشكل مدهش أو على العكس يتحلل بسرعة . كان يُدعى بالسكسونى ، مع أنه أبعد ما يكون عن ذلك الشيء . ودون أن يكلف نفسه بخلع قميصه ، فقد لف جسده ببطانيتيه كما لو كان مقمطا ، وفوق هذه الشرنقة الخشنة ارتدى ثوبه الطويل ، يضمه حوله بيد مرتعشة ، فهو يحتاج الأخرى لتساعده فى بحثه عن كل ما يثير شكوكه . قال بلكنة أجنبية حادة : صباح الخير صباح الخير صباح الخير ، راميا بنظرة متوجسة كل ما حوله . كل هذا عمل مزر رهيب . نعم . لا ، بدايات مفاجئة كبحها بسرعة وانتقل من زاويته الى موقع أفضل فى منتصف الغرفة . تفحص حساءه نقطة نقطة وهو ينقل الى طبقه ، وراقب «ليمويل» بقلق وهو يؤدى عمله مالئا مفرغا . قال : حلمت طوال الليل بذلك الرجل اللعين «كوين» . كان من عادته أن يخرج بين حين وآخر الى الهواء الطلق ، لكن بعد عدة خطوات كان يتوقف ، يترنح ، يستدير ويسرع الى غرفته ، مشدوه بمثل هذه الأعماق من عدم الشفافية ، واللون الداكن .

فى الثالثة ، رجل صغير نحيل ، يسير خببا ذهابا وإيابا ، ينشر ثوبه فوق ذراعه ، ويحمل مظلة فى يده . رأس جميل يغطيه شعر أبيض حريرى ، كان يسأل نفسه أسئلة بصوت خافت ، يفكر ثم يجيب . حين فُتح الباب بصعوبة ، وثب وثبة سريعة ليخرج ، فقد كان يمضى أيامه يجول فى الحديقة فى كل

الاتجاهات . ودون أن يضع «ليمويل» الدلوين ، أرسله طائرا بضربة من كتفه ، استلقى فى المكان الذى وقع فيه ممسكا بثوبه ومظلته ، ثم ، حين أفاق من المفاجأة بدأ يصرخ .

فى الغرفة الرابعة ، عملاق مشوه ملتح ، غير مشغول بشىء سوى هرش جسده بين حين وآخر . ينبطح على الأرضية فوق مخدته تحت الشباك ، رأسه متدل ، فمه مفتوح ، ساقاه منفرجتان ، ركبتاه مرفوعتان ، يد تستند على الأرض ، والأخرى تروح وتجىء تحت قميصه ، كان ينتظر حساءه ، حين امتلأ الطبق ، توقف عن الهرش ومد يده تجاه «ليمويل» ، على أمل يومى لا يتحقق ، فى أن يناوله الطبق ويكفيه مشقة القيام . مازال يحب الظلام ، وتكتم نباتات السرخس التى لم يبحث عنها خارج غرفته .

لدينا إذن ، الشاب ، والأسكسونى ، والنحيل ، والعملاق ، لا أعرف إذا كانوا قد تغيروا ، لا أذكر ، فليسامحنى الآخرون ، أما الخامس ، ماكمان فقد كان نصف نائم .

★★★

أسطر قليلة ، لتذكرنى بأنى على قيد الحياة ، لم يعد الرجل الذى ضربنى ، كم من الوقت مضى حتى الآن ؟ لا أعرف . فترة طويلة . وأنا ؟ بلا شك أعيش ، ذلك كل ما يهم . من أين هذه الثقة ؟ حاول وفكر ، لا أستطيع ، معاناة متعاظمة ، أنا أتورم وأنتفخ ، ماذا لو انفجرت ؟ السقف يرتفع وينخفض ، يرتفع وينخفض بإيقاع ، مثلما كنت جنينا ، ولابد من ذكر ضجة تدفق مياه ، ظاهرة ربما تتوافق مع السراب فى الصحراء . النافذة ، لن أراها ثانية ، لماذا ؟ للأسف لا أستطيع أن أدير رأسى ، ضوء رصاصى مرة أخرى ، كثيف كدوامة ، مخترق بقنوات صغيرة تتخلل الضياء ، ينبغى أن أقول الهواء ، هواء ماص . كل شىء جاهز ، عداى . منحت ، إذا جازفت فى التعبير ، ميلادا فى الموت ، هذا

انطباعى. القدمان تحررتا بالفعل من رحم الوجود الكبير ، إنها مقدمة محببة ، رأسى آخر شىء سيموت . اسحب يديك ، لا أستطيع . العائد يتمزق ، انتهت قصتى ومازلت حيا ، فترة مبشرة ، تلك نهايتى ، سأقول إنى لم أعد أحيا .

★★★

محاطا بقطيعه الصغير ، الذى نجح فى حشده بنفسه بعد جهد ساعتين ، وقد رفض «بات» أن يساعده ، وقف «ليمويل» على المصطبة منتظرا وصول السيدة «بيدال» . الحبال تقيد السكسونى مع العملاق ، والشاب مع النحيل عند الكاحلين ، بينما أمسك «ليمويل» بذراع «ماكمان» ، كان «ماكمان» الوحيد الغاضب فى المجموعة بسبب حبسه فى غرفته طوال الصباح ، ثم حيرته لعدم فهمه ما يراد منه . كانت مقاومته الأكثر حيوية ، ورفض ، بحسم ، أن يتحرك خطوة دون قبعته ، وقد وافق «ليمويل» أخيرا ، أن يحتفظ بها على رأسه ، مختفية تحت البرنس . وعلى الرغم من ذلك ، واصل «ماكمان» نكده وهياجه ، محاولا تحرير ذراعه ، مرددا مرات ومرات : دعنى أذهب . دعنى أذهب ، يختطف الشاب بشكل بائس ، وقد عذبته حرارة الشمس ، مظلة النحيل قائلا : باسول .. باسول ، ويقتص منه النحيل بضربات انفعالية على يديه وذراعيه ، صائحا : شقى . ساعدونى ! كان العملاق قد ألقى بذراعيه حول رقبة السكسونى ، وتعلق هناك رافعا رجليه ، والسكسونى يترنح ، فخورا بأنه ينهار ، طالبا بأن يتحرر بلهجة غير غاضبة قائلا : من هذا الخراء على كل حال ؟ هل يعرفه أحد منكم أيها الشحاذون البؤساء ؟ كان المدير أو نائبه موجودا ، يردد من وقت لآخر الآن من فضلك .. ، كانوا وحدهم ينتظرون . هل هى خائفة من تبدل الطقس ؟ ، واتجه الى «ليمويل» قائلا : أنا أسألك سؤالا ، السماء بلا سحب ، والهواء ساكن . أين الشاب الجميل الصغير صاحب اللحية التى تشبه المسيح ؟

وقال المدير : لكن فى تلك الحالة أما كان يجب عليها أن تتلفن !

★★★

العربة . فوق الصندوق عاليا ، بجانب الحوذى ، جلست السيدة «بيدال» . على أحد المقعدين ، وموازيا للعجلات ، جلس «ليمويل» و«ماكمان» والسكسونى والعملاق ، وعلى الجانب الآخر ، مواجها لهم ، جلس الشاب والنحيل وحارسان ضخمان بلباس البحارة . حين مرت العربة من البوابة هلل الأطفال ، هبوط مفاجىء ، الطريق منحدر وطويل دفعهم بسرعة بالغة إلى البحر ، وتحت جذب الكوابح كانت العجلات تنزلق أكثر منها تدور ، بينما الخيل المتعثرة التى تمشى باضطراب ، تشب على أرجلها الخلفية وهى تتقدم . تمسكت السيدة «بيدال» بصندوق الحوذى ، بينما اندفع جذعها للخلف ، كانت ضخمة طويلة وبدينة ، اندفعت من قبعتها القشية عريضة الحافة زهور صناعية ذات قاعدة صفراء لامعة، وبدا وجهها خلف القناع المنقط المسدل على وجهها ، مكتنزا أحمر وكأنه نبتت له وجوه عديدة . استسلم الركاب بجمود جماعى لميل المقاعد ، وانبطحوا فى فوضى عند قاعدة الصندوق على أرضية العربة . قالت السيدة «بيدال» : ارجعوا الى أماكنكم . ولم يتحرك أحد . قال أحد البحارة : ما فائدة ذلك ؟ ورد الآخر : لا شىء . قالت السيدة «بيدال» : ألا ينبغى أن ينزلوا من العربة ويسيروا ؟ حين وصلوا بسلام إلى أسفل التل استدارت السيدة قائلة : بدماثة إلى ضيوفها : الشجاعة يا أحبائى ، لتوضح أنها ليست متفوقة عليهم . اهتزت العربة وهى تستجمع سرعتها ، كان العملاق يستلقى على الألواح بين المقاعد ، سألت السيدة : هل أنت المسئول ؟ أنحنى أحد البحارة على «ليمويل» وقال : تريد السيدة أن تعرف اذا كنت أنت المسئول ؟ قال «ليمويل» : اللعنة . وأطلق السكسونى زئيرا ، اعتبرته السيدة ، الباحثة عن إشارة ضئيلة للانتعاش ، اعلانا للمرح . صاحت : تلك هى الروح . غنوا .. استمتعوا بكل ما فى هذا اليوم من مرح ، ابعدوا عن أذهانكم كل ما يشغلكم لمدة ساعة أو أكثر .. وانفجرت ، قبلهم ، بالغناء :

أيها الربيع المرح البهيج

السماء الزرقاء والشمس والأعشاش والزهور

هللويا .. المسيح هو الملك

أيها الفرح الهيج ..

توقفت ، محبطة . قالت : ما حكايتهم ؟ الشاب غدا أقل شباباً ، أنثنى كاثنين ، رأسه ملفوف بثوبه ، ويبدو أنه يتقيأ . ساقاه عظميتان بشكل مخيف تخبطان بعضهما عند الركبتين . النحيل يرتعش ، مع أنه نظريا يجب أن يكون السكسونى هو المرتعش ، وواصل حواره الذاتى . ثابتا ومتوقفا بين كل كلمتين ، مدعما حواره بإيماءات مؤثرة بالمظلة : وأنت .. ؟ شكرا .. وأنت .. ؟ شكرا .. حقيقى ؟ شمال .. حاول .. خلف .. أين ؟ ... سر ؟ لا .. يمين .. حاول .. هل تشم البحر ؟ ..

قالت السيدة «بيدال» : أنا أشمه . أعلن «ماكمان» رهانا عن الحرية . عبثا .

أخرج «ليمويل» بلطة صغيرة من تحت ثوبه ، ضرب جمجمته عدة ضربات خفيفة بيدها للاطمئنان . قال أحد البحارة : رحلة لطيفة هذه التى تقوم بها ، قال الآخر : ممتازة . الشمس والزرقة السماوية ، قالت السيدة : إرنست .. وزع الكعك .

★★★

المركب . غرفة كما فى العربة ، ضعفان أو ثلاثة أضعاف أو أربعة عند الضيق . أرض تبتعد وأرض تقترب . جزر صغيرة وكبيرة . لا صوت سوى صوت المجاديف ، النقرة التى ترتكز عليها ، البحر الأزرق يواجه قعر المركب . فى مؤخرة المركب عند قاعدة الشراع تجلس السيدة حزينة ، تمتمت : ياله من جمال . وحيدة ، لا يفهمها أحد . خير . خلعت قفازها ولمست الماء نصف الشفاف

بيدها المرصعة بالياقوت . أربعة مجاديف بدون دفة . المجاديف تقوم بالتوجيه . ما بال كائناتى ؟ لا شىء . إنهم هناك ، كل فى أحسن حالاته . كأحسن ما يكون فى أى مكان . «ليمويل» يراقب الجبال تعلو خلف أبراج الكنائس وراء الميناء، ثم لم تعد هناك . إنها مجرد تلال تعلو برفق وزرقة فاتحة من السهل المضطرب . لقد ولد فى مكان ما هناك ، فى بيت جميل ، من أبوين متحابين ، المنحدرات هناك مغطاة بالخلنج والوّزال ذو الاجراس الصفراء الحارة المعروفة بالجوالق ، وقاطعو الحجارة ، تدق مطارقهم طوال النهار كالأجراس .

★★★

الجزر . مجهود أخير . الشاطىء المواجه للبحر الواسع مثلم بالخلجان الصغيرة . يمكن للمرء أن يعيش هناك سعيدا ، لو كانت الحياة ممكنة ، لكن لا أحد يقيم هنا ، المياه العميقة تأتى لتغتسل فى قلب المكان وسط أسوار عالية من الصخور . يوما ما لن يبقى منه شىء سوى جزيرتين يفصلهما خليج ، ضيق فى البداية ، ثم يتسع مع مرور القرون . جزيرتان ، كتلتان من الشعاب الصخرية، من الصعب الحديث عن إنسان تحت مثل هذه الظروف . قالت السيدة «بيدال» : تعال يا إرنست لنجد مكانا نعسكر فيه ، أما أنت يا موريس فابق عند القارب الصغير ، تقول عنه صغيرا . النحيل يفرك يديه لينطلق ، لكن الشاب ألقى نفسه فى ظل صخرة مثل «سورديللو» ، لكن بعظمة أقل ، منسورديللو كان يشبه أسدا يستريح ، وأمسك به بكلتا يديه . قالت السيدة : المخلوقات المسكينة ... دعهم .. أطلق سراحهم . أراد «موريس» أن يطيع ، صاح به «ليمويل» : ابتعد . رفض العملاق مغادرة المركب ، وبالتالى لم يستطع السكسونى مغادرته . «ماكمان» هو الآخر لم يكن حرا ، «فليمويل» يمسكه من وسطه ، ربما بحب . قالت السيدة : أنت المسئول هنا . وابتعدت هى وإرنست . التفتت فجأة وقالت : أنت تعرف أن هناك عرافا على الجزيرة .

★★★

بقايا . نظرت اليهم بالتناوب . قالت : حين نتناول الشاى سنصطاد لهم ؟ ما قولك ؟ تحركت أخيرا ، يتبعها إرنست يحمل سلة الرحلة بين ذراعيه . حين اختفت ، أطلق «ليمويل» سراح «ماكمان» ، وصعد وراء «موريس» الذى كان جالسا على حجر يملأ غليونه . قتله بالبلطة . نحن نتقدم . نتقدم . الشاب والعملاق لم يلاحظا الأمر . النحيل كسر مظلته على صخرة ، إشارة غريبة . صرخ السكسونى منحنيا الى الأمام وضاربا فخديه بيديه : عمل لطيف يا سيدى. عمل لطيف . بعد قليل ، عاد «إرنست» ليأخذهم ، فقتله «ليمويل» بدوره ، بالطريقة نفسها كالآخر ، غير أنه استغرق فترة أطول قليلا . رجلان لطيفان هادئان خيران بالاضافة إلى أنهما اخوان فى الانسانية ، هناك بلايين من أمثال هذه الوحوش . وضع «ماكمان» قبعته ثانية على رأسه الضخم . صوت السيدة «بيدال» تنادى ، ظهرت فرحة ، صاحت : تعالوا كلكم قبل أن يبرد الشاى .

لكن حين رأت القتيلين أغمى عليها وسقطت . صرخ السكسونى : اسحقها . كانت قد رفعت برقعها ، وتحمل فى يدها سندويتش صغيرا ، لابد أنها كسرت شيئا عند سقوطها ، ربما فخذها، فالنساء العجائز دائما يكسرن أفخادهن . وما إن استردت وعيها حتى بدأت تئن وتتأوه كما لو أنها الإنسان الوحيد على الأرض الذى يستحق الشفقة . حين اختفت الشمس وراء التلال وبدأت أنوار الأرض تتلألأ ، أمر «ليمويل» الجميع بالصعود إلى المركب ولحق بهم ، ثم انطلقوا، الستة، من الشاطىء .

قرقرة المياه المتدفقة .

هذه الكتلة من الأجساد الرمادية ، كانت هم . صامتون . عابسون . بجوار بعضهم ، رؤوسهم مدفونة فى أثوابهم ، يستلقون جميعا فى كومة فى الليل . ابتعدوا عن الخليج ، جهز «ليمويل» مجاديفه . المجاديف تلامس المياه ، والليل منثور بالعبث .

أضواء عبثية ، النجوم ، المنارات ، الطافيات لإرشاد السفن ، أضواء الأرض. وعلى التلال النيران الخابية لجوالق نبات الوّزال ، «ماكمان» آخر ما بقى لى ، ممتلكاتى ، أذكر أنه هناك أيضا ، ربما ينام «ليمويل» .

★★★

«ليمويل» هو المسئول ، يرفع بلطته التى لن يجف عنها الدم أبدا ، ليس ليضرب أحدا ، لن يضرب أحدا بعدهم ، لن يضرب أحدا ثانية ، لن يلمس أحدا، سواء بها أو بها أو بها أو بها ...

سواء بها أو بمطرقته أو بعصاه أو بقبضته أو بفكره أو بأحلامه .. أعنى ... إنه لن يستطيع أبدا ...

أو بقلمه أو بعصاه ..

أو بالضوء .. أعنى الضوء ..

أبدا .. هناك لن يستطيع أبدا ..

لا شيء أبدا ..

هناك ..

لا شيء .

انتهت

العدد القادم من روايات الهلال :



تصدر : ١٥ سبتمبر ١٩٩٩

● نموذج الإشتراك فى روايات الهلال ●

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك في روايات الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الإشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لادارة الاشتراكات .

الاســـــــم :

....

العنـــــــوان :

....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا -أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند-كندا دولار	باقي دول العالم دولار
اشـــتراك سنوي	٥٤	٣١	٤٥	٤٥	٥٤
إشتراك ٦ شهور	٢٧	١٦	٢٣	٢٣	٢٧

رقم الايداع : ١١٦٤٢ / ١٩٩٩
I.S.B.N
977 - 07 - 0675 - 2

هـــذه الـروايـــة

هذه أول رواية تترجم إلى اللغة العربية لصموئيل بيكيت.

وهى رواية غير عادية، فهى تقف ضد التـراث الكلى للأدب، مـثل مـعظم روايات بيكيت القليلة الأخرى، أدب ينفى كل أدب، وينفى نفـسـه فـى العـمل الإبداعى الذى يمثله، ومع ذلك ينال جائزة نوبل.

بطلها يؤكد على ضيـاع الشـخـصـية، يرقـد عـاجـزاً فى السـرير، ينبش بين حين وآخر فى ممتلكاته الخـاصـة التـافـهـة التى يجذبها نحوه بعصاه، ويقتل الوقت بحكاية القصص لنفسه، وحين يمل من قصة ينتقل إلى أخرى، ليكتشف أن الخيال هو مسكن مؤقت للقلق، وأن الكلام الذى نسـتـخـدمـه لأجل النسـيـان يـعـيـدنا بلا رحـمـة إلى الحاضر، وانتظار الموت.

القارئ العـربى عرف بيكيت مسـرحـيا مرموقا، مـهووسا بالتـجديد، وهذه الرواية تكشف عالما غامضا فى إبداعه، لم يعرفه القارى العربى بعد



صموئيل بيكيت
١٣/٤/١٩٠٦-٢٢/١٢/١٩٨٩

● واحد من أبرز كتاب المسـرح فى القـرن العـشـرين، حصل على جائزة نوبل ١٩٦٩ مولود قريبا من دبلن بايرلندا ، عمل فى بداية حياته سكرتيرا للكاتب جيمس جويس، وترجم أعماله إلى الفرنسية.

● فى عـام ١٩٣٥ كـتب روايتـه الأولى «مـورفى» ثم لمع اسـمـه ككاتب مـسـرحـى، من أشـهـر العـبـثـيين فى القـرن العشرين، ومن أهم مسرحياته، «فى انتظار جـودو» ١٩٥٣ ثم «نهـاية رحلة» ١٩٥٧، «الايام السـعـيـدة» ١٩٦١، و«كلمـات ومـوسـيـقى» ١٩٦٢ و«الحب الأول» ١٩٧٠.

● اتسمت حياته بغموض واضح، وتوقف عن الكتـابة فى السنوات الأخيرة منها.


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
زهور
رجل أحببته
سر الجاثوم
روايات مصرية للجيب
لتفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٠ - ٢٠٨١٠٩٧
فاكس ٢٨٢٧٠٠٢